

الجامعة المصرية

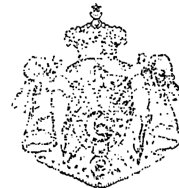
الفلسفة العربية والأخلاق

ملخص الدروس التي ألقاها بالجامعة المصرية

سلطان بك محمد
استاذ الفلسفة العربية والاخلاق بالجامعة المصرية
والمدرس بمدرسة دار العلوم

الجزء الثاني

في الأخـــلاق



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

﴿ فهرست كتاب الأخلاق الاسلامية ﴾

صفحة

صفحة

الاخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [1] واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [2] والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما [3] انها ساءت مستقراً ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما [4] والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذالك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيهِ مهاناً الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً [5] والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صماً وعميانا والذين

---

(١) بسكينة وتواضع لا يضربون الأرض بأقدامهم أشراً و بطراً

(٢) سداداً يسلمون فيه من الايذاء والاثم (٣) هلاكاً وخسرانا

(٤) حداً وسطاً والاثام بوزن الوبال والنكال الجزاء والاثم ومعنى مضاعفة العذاب أن يكون على الكفر والذنب ومعنى تبديل السيئات حسنات محوها واثابتهم على الايمان والأعمال وقيل المراد بالسيئات الكفر والقتل والزنا و بالحسنات الايمان وعدم القتل والعفة (٥) أى مرضياً له مكفراً للخطايا جالباً للثواب

يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قوة أعين وجعلنا للمتقين اماما أولئك يجزون الغرفة [١] بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًّا ومقاما

اعلم أيها الناظر فى كتابنا هذا أن لكل موجود خواص يحصل بها كماله اذا تمت له على وفق الغرض المقصود منه ألا ترى أن أكمل أنواع الغذاء ما كان أشد تغذية من غيره وأبعد عن الاضرار بالمغذَّى وأن أجود أنواع السقيا ما كان أسرع فى اذهاب العطش وأعذب مذاقاً نافعاً لصحة الشارب وأجود الخيل ما كان أشد عدواً وانقياداً لراكبه وأن أجل العلوم وأفيدها ما كان أعظم نفعاً فى الدنيا والآخرة وهكذا وأنت خبير بأن أشرف تلك الموجودات الانسان الذى فضله الله على كثير من خلقه . قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وقد امتنَّ عليه بأن سخر لنفعه ما فى العالم كما قال خلق لكم ما فى الأرض جميعاً

وظاهر أنه لا يتأتى له الانتفاع بذلك الاَّ اذا كان ذا فكر ثاقب سديد وعنيت أفراده به كى يتسنى لكل واحد منهم الوقوف على خواص تلك المخلوقات وفوائدها فى الاجتماع البشرى والعمران المدنى فان توزيع الأعمال على الأفراد أدعى لانجازها والحصول على كثير منها كى يرتفقوا به ويساعدهم على المنافع الدنيوية والأخروية والباحث منهم عن ذلك مظهر لآلاء الله جلَّ شأنه على أفراد هذا النوع فهو أعظم نفعاً وأكثر فضلاً ممن عطله بخمود فكره ونقيصة كسله وأنت أرشدك الله

(١) الدرجة العالية

تعلم أن حاجة الانسان فى غذائه وملبسه وغير ذلك مما تتوقف عليه حياته
لا يستطيع أن يقوم بها منفرداً فلا بد من اجتماعه مع بنى نوعه وتوزيع
تلك الأشياء عليهم فكيف به فى كمالاته حتى يعيش عيشة طيبة وانك
لتذعن أنه كلما عظمت الألفة ووشجت الرابطة بين أفراد هذا المجتمع
واتحدت الوجهة زاد متانة وقوة فيقل تطرق الخلل اليه وتسهل أمامه سبل
السعادة . ألست ترى بعد هذا البيان الوجيز أن المقصود من وجود
الانسان هو الوقوف على حقائق الموجودات وما لها من الخواص والعمل
الذى ينهض به ويأمته الى أوج السعادة وأنه بمقتضى ما قلناه من القانون
العام أنه لا تتفاضل أفراده الا بذلك فكل من توفرت لديه القوى النظرية
الحقة والقوى العملية المفيدة كان قائماً بما قصد من الوجود الانسانى فكان
فيه أفضل ممن كان أحط منه فى ذلك . واذا أمعنت النظر وجدت عامة
خلال الانسان شريفها وخسيسها ترجع الى ثلاث قوى . الأولى القوة
الناطقة وتسمى بالقوة الملكية أيضاً وهى القوة التى يكون بها الفكر
والتمييز والنظر فى حقائق الأشياء وخواصها . الثانية القوة الغضبية وتسمى
السبعية وهى القوة التى يكون بها الغضب والنجدة والاقدام على عظائم
الأمور والشوق الى التسلط والترفع وأنواع الكرامات . الثالثة القوة
الشهوية وهى التى تكون بها الشهوة الى طلب الغذاء وملاذ المآكل
والمشارب وغيرها من ضروب اللذات البدنية واذا اعتدلت هذه القوى
وكانت على حدها الأوسط وانقاد الأخريان منها الى الأولى فيما يكون
عنهما من التصرفات قامت كلها بالأغراض الشريفة التى خلق لها الانسان
ولو غلبت واحدة منهنّ على الأخرى وكان التصرف على خلاف ما تقتضيه

النفس الملكية نشأ عن ذلك شرور على قدر ذلك الخلاف والغلب

ومعلوم أن هذه القوى ضرورية لعيش الانسان وفلاحه ووصوله الى الغرض المقصود منه فاذا كانت بين طرفى الافراط والتفريط وتصرفت على مقتضى معلومات النفس الناطقة جلبت الخيرات ودرأت الشرور وكان صاحبها فاضلاً كاملاً وان تكن الأخرى عمت الشرور وساءت الأحوال وكان المتصف بها شريراً مرذولاً

أنظر الى شخص بليد الطبع لا يعقل له خيراً فيجلبه أو شراً فيدفعه ولا يشاطر بنى نوعه فى شئ منهما تراه أحط حالاً من البهائم فانها أجدى منه بتسخيرها فى جلب المنفعة ودرء المضرة والى شخص آخر زادت فطنته عن حد الاعتدال فأصبح ذا جربزة لا يدرك حقيقة ولا يصدق بثبوت أمر لآخر لما يعتريه من الشكوك والأوهام التى لا تقف به عند حد لعدم اعتدال ذكائه فكلما أدرك أمراً نقضه وكلما نقض شيئاً أثبته ثم نقض ما أثبته وهلم جرّاً فان ادراكاً مثل هذا لا يعرف به حسن من قبيح ولا يترتب عليه نهوض الى ابرام أمر أو ايجاد عمل فصاحبه لا يمتاز عن بليد الطبع فاقد الفهم فلا يكون عنه ما قصد من الانسان وخلق لأجله . ومثل ذلك يقال فى القوة السبعية والشهوية

واعلم أن اعتدال القوة الأولى واستعمالها فى المعارف الحقة دون الباطلة ينشأ عنه الحكمة واعتدال الثانية وانقيادها للأولى فيما ترسمه لها فلا تهيج فى غير موضع الهياج ولا تحمى أكثر ما ينبغى لها ولا تخمد فى موضع هياجها فتترك حماية ما تنبغى حمايته ينشأ عنه الشجاعة واعتدال القوة الثالثة وانقيادها للأولى فيما تسنه لها فلا تنهمك فى الملاذ الشهوية

على وفق هواها ولا ترد منهـا ما به قوام البدن تحصل به العفة والسخاء ويحصل عن اعتدال هذه الأشياء الثلاثة قوة رابعة تسمى بالعدالة

هـذه هي القوى الأربع التي أطبق علماء الاخلاق على أنها أمهات الفضائل وأصولها . ولنبحث الآن فيما يندرج تحت كل واحدة من هذه الامهات

الحكمة وما تشتمله من الصفات

هذا الخلق من خواص الانسان دون سائر الحيوان وهو أن تعلم النفس حقائق الموجودات وما لها من الخصائص بقدر الطاقة البشرية وما يجب أن يفعل من الأشياء وما يجب أن يترك بالقياس الى السعادتين في الحياتين والشقاء فيهما والعلم بالشيء من حيث حسن فعله أو تركه هو الغرض الذي نتوخاه في علمنا هذا . وعلى ذلك فهي واسطة بين الجربزة التي هي استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي بمعنى عدم الوقوف في الفكر عند حد كما قلناه والبلادة وهي تعطيل هذه القوة واطراحها بالارادة . وتشمل هذه القوة سبعة اشياء لا تتحقق بدونها

أولها (الذكاء) وهو وسط بين الخبث والبلادة . فالأول هو الافراط فيه حتى يخرج عن حد الاعتدال بأن يستعمل الدهاء والحيل الرديئة فيما ينبغي فيه الذكاء . والثاني هو التفريط فيه بأن يكون أبله عاجزاً عن ادراك ما يحسن فيـه الذكاء المذكور وكما يكون في العلم يكون في الحصول على الاشياء

ثانيها (الذُكْر) وهو وسط بين اهمال ما ينبغي أن يحفظ والعناية

بما لا ينبغى أن يحفظ فان الأول تفريط يترتب عليه ضياع ما يجب أن تتذكره القوة النفسية حتى تعمل على اجتلاب ما فيه الخير ودرء ما فيه الشر . والثانى افراط يحصل منه اشتغال تلك القوة بحفظ ما لا يفيدها حفظهُ وفى ذلك بعض تعطيل لها عن الاشتغال بالأشياء النافعة

ثالثها (التعقل) أى حسن التصوّر وهو وسط بين الذهاب فى تصور الشيء الى أكثر مما هو عليه وقصور النظر فيه عما هو عليه . فان الأول افراط مؤد الى اشتغال الفكر بما لا يعود بالفائدة بل قد يؤدى الى الخطأ كالبحث عن كون الكهرباء تُبصَر أو لا . والثانى تفريط قد يوجب عدم ادراك الحقائق والافعال التى ينبغى أن تكون أو لا تكون ادراكاً حقاً وهذا يقتضى أنا قد نعمل ما لا ينبغى ونترك ما ينبغى

رابعها (سرعة الفهم) وهى وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير احكام لفهمه و بين الابطاء عن فهم حقيقته . والأول افراط فى السرعة المذكورة ينشأ عنه الجهل المركب وهو يستتبع ايجاد ما الكمال فى تركه وترك ما يكون الكمال فى ايجاده . والثانى تفريط يسوق الى استمرار البقاء على الجهالة واستتباع ذلك لجلب الاضرار وعدم تحقق الاغراض المقصودة من الوجود الانسانى امرٌ لا يخفى

خامسها (صفاء الذهن) وهو وسط بين الالتهاب الذى يعرض له فيمنعه من استخراج المطلوب و بين ظلمته التى تعوقه عنه

سادسها (قوة الذهن وجودته) وهى وسط بين افراط التأمل فيما يلزم الشيء حتى يخرج منه الى غيره و بين التفريط فيه حتى يقصر عنه وضرر كل من الطرفين ظاهر

وسابعها (سهولة التعلم) وهى وسط بين الافراط فيها الذى هو المبادرة اليه بسلاسة لا يثبت معها العلم و بين التفريط الذى هو ارتكاب الصعوبة والتعسر فى الحصول عليه

علمت من هذا أن فضيلة الحكمة لا تحصل الاّ من توفر اعتدال هذه الاشياء السبعة ولو تأملت لوجدت بعضا منها لازماً للآخر بل تجد الفرق بينها دقيقاً جداً . واعلم أنه ما دام الحد الوسط فى هذه الاشياء فضيلة يكون كل من الافراط والتفريط رذيلة

الشجاعة — هى كما علمت اعتدال القوة الغضبية التى تكون فى الانسان وغيره من الحيوان . وهى وسط بين رذيلة الافراط الذى هو التهور أى الاقدام على ما لا ينبغى أن يقدم عليه والتفريط وهو الجبن أى الخوف فيما لا ينبغى أن يخاف منه . وقد علمت مما أبناه آنفاً أنها اعتدال القوة السبعية ولا تحصل هذه القوة الا اذا توفر اعتدال القوى السبعة المحصلة لها وهى (كبر النفس) وهو الاستهانة باليسير والاقتدار على احتمال ما يحتمل من الشدة والهوان وذلك وسط بين الافراط فيه وهو الاستهانة بالكثير واحتمال ما لا يحتمل من الهوان وبين التفريط الذى هو الاعتداد ببعض الاشياء اليسيرة وعدم احتمال بعض ما يحتمل من الذلة و (النجدة) وهى ثقة الانسان بنفسه عند المخاوف حتى لا يخالطه جزع و (عظم الهمة) وهى فضيلة في النفس تحتمل بها السعادة والشقاء حتى الشدائد التى تكون عند الموت و (الثبات) وهو فضيلة فى النفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها فى الاهوال خاصة ولا يزحزحها ذلك عما تحاوله و (الحلم) وهو خلق فى

النفس يكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة و (الشهامة) وهي الحرص على عظيم الاعمال توقعاً للأحدوثة الجميلة و (احتمال الكد) وهو قوة للنفس تستعمل بها آلات البدن في الامور الحسنة بالتمرين وحسن العادة و (السكون) أي عدم الطيش عند الخصومات أو الحروب المشروعة وهو قوة للنفس تُقَسّم بها حركتها في ذلك تقسيماً مراعىً فيه الظروف والاحوال . وهذه القوى التي تحصل عن اجتماعها الشجاعة التي هي اعتدال القوة السبعية لها طرفان افراط وتفريط وكل منهما رذيلة كما قدمناه

العفـة — هي صرف الشهوات على وفق الرأي الصحيح فيكون صاحبها خيّراً غير خاضع لها وهي ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية المشتركة بين الانسان وغيره من أنواع الحيوان . وهذه القوة تحصل من اعتدال اثنتي عشرة قوة أولها (الحياء) وهو انحصار النفس خوف اتيان القبيح والحذر من الذم الصادق . وثانيها (الدعة) وهي سكون النفس عند حركة الشهوات . وثالثها (الصبر) وهو مقاومتها الهوى لئلا تنقاد لما لا يحسن كقبائح اللذات والهلع في الملمات . ورابعها (السخاء) وهو التوسط في الاعطاء بأن ينفق الأموال فيما ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي . وخامسها (الحرية) وهي الصفة التي بها يكتسب الانسان المال من وجهه ويعطيه في وجهه ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهه ومن اعطائه كذلك. وسادسها (القناعة) وهي التساهل في المآكل والمشارب والزينـة المتوفرة . وسابعها (الدماثة) وهي حسن انقياد النفس لما يجمل ما عدا الزينة وتسرعها اليه. وثامنها (الانتظام) وهو حالة في النفس

تقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبهـا على الوجه الحسن . وتاسعها (حسن الهدى) وهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة على الحد الوسط وعاشرها (المسالمة) وهى موادعة تحصل للنفس بدون اضطرار اليها بالاَّ يـكون شديد الطلب والمخاصمة فى الامور الشهوية وحادى عشرها (الوقار) وهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون في المطالب وثانى عشرها (الورع) وهو ملازمة الأعمال الجميلة التى للنفس فيها كمال من حيث ترك الشهوات وملازمة التقوى

العدالة — هى وسط بين أن يكون الانسان ظالماً لغيره وبين كونه مظلوماً له . والأول يتوصل به الى كثرة المقتنيـات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغى ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لأنه يتوصل اليها من حيث لا ينبغي وكما لا ينبغى . وأما الثانى فيؤدى الى قلة المقتنيـات والأموال لأنه يتركها من حيث لا يحسن وعلى هذا فالعداله التى هى الوسط بين الأول والثاني عبارة عن أن يقتنى الانسان مقتنياته من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب فهى فضيلة ينصف بها الانسان من نفسه ومن غيره دون أن يمنح نفسه من المنافع أكثر وغيره أقل وفي المضار لا يجعل نفسه أقل وغيره أكثر بل يستعمل المساواة . والجور ضدّ ذلك والعدالة كما قدمنا تكون عن أمهات الفضائل الثلاثة السابقة التى هى الحكمة والشجاعة والعفة . وتحصل هذه الصفة بتوفر اعتدال القوى الثمانية الآتيـة . (الصداقة) وهى المحبة الصادقـة التى يهتم معها بجميع أحوال الصديق وايثار فعل الخيرات التى يمكن فعلهـا له وهى آتية من الشهامة والقناعة وحسن التعقل الذى هو من القوة الحكمية و (الألفة)

وهى اتفاق الآراء والاعتقادات وتكون عن التواصل والتظاهر على تدبير أمور الحياة وهى آتية من القوة الحكمية واعتدال القوة الغضبية وثالثها (صلة الرحم) وهى اشراكها فى الخيرات الدنيويه . ورابعها (المكافأة) وهى مقابلة الاحسان بمثله أو بما يزيد عليه وهى ناشئة من السخاء وحسن التعقل . وخامسها (حسن الشركة) وهى الأخذ والاعطاء فى المعاملات على حد الاعتدال الموافق للجميع وهى كائنة عن حسن التعقل واعتدال العفة . وسادسها (حسن القضاء) وهو مجازاة بغير من ولا ندم . وسابعها (التودد) وهو طلب مودة الاكفاء وذوى الفضل بحسن اللقاء والأعمال التى تجلب محبتهم وهى ناشئة عن التعقل والشهامة واعتدال القوة الغضبية . وثامنها (العبادة) وهى تعظيم الله تعالى وطاعته واكرام أوليائه من الأنبياء والصالحين والعلماء العاملين والعمل بما تطلبه الشريعة وتقوى الله تعالى أعظم مكمل لهذه الأشياء ومتمم لها وهى كائنة عما تقدم

اعلم أنه اذا توفرت الفضائل السالفة فى بنى الانسان فقد عرفوا الحقائق وخواص الاشياء التى يتمتعون بها ويرتعون باستخراجها فى بحبوحة السعادة واتسموا بفضائل الاخلاق التى توجب لهم ميل الأفئدة وصفاء القلوب فتقل بينهم المشاحنات وتذهب الضغائن وتعظم الصلات فتتحد الوجهة وتجتمع الأيدى على الأعمال النافعة ودرء المضار فترقى الامة فى درج سعادتها الدنيوية والأخروية

والعلم الباحث عن الصفات الانسانية من حيث استتباعها الكمال أو النقص من جهة تأثيرها فى الاجتماع الانسانى قوةً أو ضعفاً وذكر

طريق الوصول الى فضائلها والتوقى من رذائلهـا هو ما نسميه بعلم تهذيب الاخلاق

الخلق

هو ملكة فى النفس يطرد عنها صدور الافعال فلا تكون الشجاعة خلقاً الاّ اذا كانت راسخة فى نفس من اتصف بها فلا يتأخر فى موضع الاقدام ولا يقدم فى موضع الاحجام وكذلك صفة الحلم وغيرهـا من الأخلاق الفاضلة ومعلوم أن هذه الصفات لا تخرج عن كونها أحوالاً الى كونها ملكات الاّ بكثرة تمرين النفس عليها وأخذها بها فى مواقعها حتى تعتادها وتصير كأنها غريزة فيها

ومن تأمل فى أحوال كثير من الناس يرى أن من بينهم من تكون فيه بعض الأخلاق جبلية فانا نرى بعضاً منهم يغتم ويحزن لأقل حادث واذا أبنت له أن هذا الحادث عادى لا يقتضى أسفاً ولا حزناً أعجزتك تسليته ومن يضحك لأقل شيء واذا حاولت رجوعه عن ذلك استعصى عليك أمره بل انه يصعب عنه التخلى عن ذلك وأن منهم أيضاً من يجبن ويفزع من أى نبوة ويمتلئ قلبه خوفاً ويكاد يذوب رعباً من أى طارئ ولذا ذهب بعض من علماء الأخلاق الى أنها جبلية وذهب آخرون الى أنه لا جبلى منهـا للانسان وانما ينمو فيه خلق الفضيلة باتباع وسائله من التربية والتهذيب ومصاحبة الأخيار واستعمال الروية والفكر وخلق النقيصة باتباع سبله من مصاحبة الاشرار واهمال التربيـة والتهذيب والانقياد للنفس الشهوية أو الغضبية

قال الرواقيون [١] ان الخلق الفطرى فى الانسان هو الخير وانما اهمال تربيته وتركه مع وسائل الشر يذهب به الى النقيصة وقال جالينوس ان من الناس من فيه خلق الخير واذا ذهبت به الى خلق الشر استعصى عليك أمره أو خفضت من خلقه الخيرى بعض التخفيض ومنهم من فيه خلق الشر واذا حاولت تغيير خلقه هذا بضده أعياك أمره وربما أنقصت منه بعض النقص ومنهم من خلقه وسط بين هذين الأمرين ويحصل له أحدهما بمراعاة وسائله وطرقه وأبطل قول من قال ان أصل الخلق فى كافة الناس الخير ورأى الآخر القائل بأن أصله الشر بأنا قد وجدنا فى كثير من الناس خلق الشر فان كان من نفسه فقد بطل قول من قال ان أصله الخير وان كان مكتسباً من غيره أو جاء بالفكر والنظر فقد بطل أيضاً قول القائل المذكور لأن ما بالطبع لا يتخلف وأبطل القول الثاني بمثل ما أبطل به الأول

وانا نقول انه ليس شئ من الأخلاق الخاصة طبعياً للانسان . بل انه قابل لأن يتغير من خلق الى آخر باستعمال وسائل ذلك الخلق الذى ينتقل اليهِ سواء كان هذا التغير سريعاً أو بطيئاً فانا نرى الانسان في حالة طفوليته قد يكون له ميل الى خلق الكرم مثلاً وتحقق ذلك منه تحققاً لا لبس فيهِ فان الاطفال لم يصلوا بعد الى ادراك أن هـذا الخلق ممدوح أو مذموم حتى يتظاهروا بالأول دون الثاني كما هو شأن الكبار الذين عقلوا ذلك (ومثل هذا تكون تنمية الخلق الذى فيهِ مبدأ الميل اليـه

---

(١) هم أصحاب كروسيفس كان يعلم فى رواق بهيكل أثينا وهو من الفلاسفة المتقدمين الذين دثرت فلسفتهم

سريعة جداً) وأن الخلق الذى ليس فيه ميل اليه اذا ترك وشأنه حتى كبر رسخ وتأصل وأصبحت زحزحته عنه بطيئة تحتاج الى كثير من العلاج والقول بأن الأخلاق طبعية لا تتغير مخالف للمشاهد ومعطل لما أمرنا به من التربية والتهذيب ومناقض لما درج عليهِ البشر من الحث على الأخذ بوسائل السعادة والرقى

الكلام على فوائد الحكمة

اعلم وفقك الله أن النفس مستعدة بأصل فطرتها الى ادراك الحقائق وما يعرض لها من الأحكام وهذه اما أن تكون عقلية محضة وتنقسم الى بديهية ونظرية فالبديهية ما تحصل للنفس بدون نظر واستدلال ولا يظهر لنا سبب ذلك وهذا مثل ادراكنا المحسوسات ومثل تصديقنا بأن الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد والنظرية ما ليست كذلك كتصورنا ماهية الجن والملك والكهربُاء مثلاً وكحكمنا بأن الوجود عين الماهية وأن الابعاد متناهية وأن التسلسل محال وبأن في بعض الأجسام جذباً وأن من خواصه أنهُ يحرك الأجسام الثقيلة من موضع الى آخر وأن كل جسم خفيف يطفو فوق ما هو أثقل منه وأن من خواصه تحقق السباحة والطيران في الهواء وكحكمنا على جذب المغناطيس بأن المختلف منه يتباعد ويتنافر وأن من خواص ذلك الاهتداء الى طريق السير برّاً وبحراً الى غير ذلك واما أن تكون شرعية وهي أحكام نظرية يتوقف عليها الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وثبوت أحكام الأفعال الانسانية لها من الوجوب والندب والكراهة والجواز والصحة والفساد الخ . ومعرفة

أحوال كل خلق من الأخلاق الانسانية من حيث ما يترتب عليه من الفوائد الخصوصية والاجتماعية أو المضار كذلك ويلحق بذلك معرفة طريق التخلي عن رذائلها والتحلي بفضائلها واقبال الناس على استنباط تلك المعارف النظرية حتى تحصل لديها الحقائق وخواصها وما يترتب عليها من الأحكام سواء الشرعية أو العقلية التى لم يحظرها الشارع عليه السلام لكونها لا تعود على موضوعه بالنقض كما أسلفناه كل ذلك أمر تدعو اليه الشريعة المطهرة كيف والعالم بخواص الاشياء المفيدة في هذا المجتمع اذا أبرزها أظهر لنا فوائد ما امتنّ الله علينا به من خلقه لنا جميع ما في الأرض وسهل لنا مرافق هذه الحياة واذا كان الله جعل لمن عمل صدقة جارية ثوابًا في الحياة وبعد الممات لبقاء تلك الصدقة بعد الموت (قال عليه الصلاة والسلام اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) — كان المظهر لخواص الاشياء لبنى نوعه كى تعينهم على سهولة قضاء حاجهم ويرتفقوا بها ارتفاقًا دائمًا أدوم ثوابًا وأعظم أجرًا عند الله تعالى متى توفرت وسائل ذلك وقد حث الله عباده المؤمنين على اكتساب العلوم النظرية وجعلها من أعظم القرب اليه تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا تقرب الناس الى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك فانه لا يكون التقرب بالمعارف الغريزية الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالعلوم الكسبية

ومعلوم أنه يندرج فيها العلوم الكسبية الشرعية كالعقائد المتعلقة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة حسن الأعمال وقبيحها وما يترتب على ذلك من الاحكام الشرعية ومعرفة فاضل الأخلاق التي

مدحها الشارع وحض على الالتصاق بها وسافلها التى نهى عن التخلق بها الى غير ذلك من علوم الشريعة الغراء وقد قدمنا أن العلوم النظرية المتعلقة بمعرفة خصائص الأشياء وما يكون عنها من المنافع فى هذه الحياة وابرازهـا فى عالم الخارج من أجل الأشياء التى توجب حسن الذكر عند الناس كافة

انظر أيدك الله الى دليل السير المسمى (بالبوصلة) وما تترتب عليه من قطع المساوف والوقوف على عجائب المخلوقات من البحار والجبـال وأشكال أنواع الطيور والحيوان وغير ذلك من الآثار الخالدة والمصنوعات البديعة وما كان من ارتباط الأمم وانتفاع كل بما عند الآخر من الأشياء المادية والأدبية ولا يذهب بك عدوان بعض على بعض الى القدح فى نتائج ذلك الدليل لأنه ليس منشأ ما ذكرت بل هو كائن عما جبلت عليه الطبائع البشرية من حب الغلب والاستئثار بالمنافع سنة الله فى خلقـه انظر الى ما سرت به الركبان من اطراء جيم وط الانكليزى مخترع الآلة البخاريه ومقدار ما جاء به من المنفعة في بنى النوع الانسانى فى حياتهم الدنيا فانهـا أزالت عنا متاعب كثيرة نقضى فيها أزماناً طويلة للحصول على شئ قليل بالنسبة لما نحصل عليه من تلك الآلة من طحن الحبوب وحرث الأراضى واصلاحها وريها وتسيير السفن والقاطرات البرية وطبع الكتب وسك النقود وطرق المعادن الصلبة ورفع الأثقال وما ينشأ عنها من صناعة المنسوجات وغير ذلك من الأعمال التى يحتاج فيها الى القوة أليس ذلك نتيجة البحث والتنقير عن معرفة خواص الأشياء الكونية وما يترتب عليها من المنافع لبنى النوع الانسانى وعدم اجهاد الحيوان

الذى أمرنا الشرع الشريف بأن نرفق به

فوائد الشجاعة — هى احدى أمهات الأخلاق ولا نريد بها هنا اقتحام الحروب وركوب أخطارها عند الاقتضاء مع الروية والفكر بل نريد بها ما هو أعم من ذلك فتشمل هذا وتشمل الاقدام الأدبي والثبات على المبادئ الشريفة التى تعود بالفائدة على المجتمع الانساني وهو خلق فى النفس ينمو بالتربية والتمرين كما أن ضدها كذلك فانا شاهدنا أخوين تربيا تربية واحدة ورأينا أحدهما شجاعاً والآخر جباناً وهى بقسميها اذا روعى فيها الحكمة جلبت الخير ودفعت الضير والقسم الأول منها ألزم لغير أهل الحضر فان كثيراً من القبائل أهل البادية الذين نيطت بهم حماية أهليهم وأموالهم اذا نما لديهم هـذا الخلق حموا ذمارهم وكفوا عنهم يد العدوان وهابهم الظالمون لان النفوس جبلت على حب عدم الغلب وصيانة الأعراض والأموال فلا يمدون يداً لأولئك القوم الذين علم أمرهم فى الذود عن حياضهم لانهم يظنون أنهم اذا راموا ذلك منهم ردوا على أعقابهم وخسروا رجالاً وأموالاً والانسان لا يقدم على عمل الاّ اذا تخيل منه نفعاً فالشجاعة حصن لذويها وصياصى تقصر عنها يد أولئك الطامعين قال زهير

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقال غيره

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

وهى سياج الأمم واحدى وسائل رقيها وعظم سلطانها فالأمة التى اتحدت وجهة أبنائها وأصبحت الشجاعة لهم خلقاً تخطو فى ميادين العظمة واتساع الملك وتتطأطأ أمامها رءوس الطامعين واذ قد تبينت القسم الأول

منهـا عامت ما يترتب عليه من المنافع فان شجاعة قبيلة أو حكومة أو فرد أمام نظيره يستعقب قبض يد ذلك النظير عنـه فاذا كانا متصفين بتلك الصفة الفاضلة متكافئين فيها عم السلم وشمل الأمن فعاش كل آمناً على نفسه وماله وعرضه فتنبسط الأيدى للعمل والـكسب

البحث عن خواص الأشياء التى توصل الى الحياة الطيبة هو الغرض المقصود من الوجود الانسانى كما تقضى به عامة الديانات السماوية نقل ما معناه أن بعض الصحابة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لدى الـكعبة وطلب منه الدعاء على المعارضين الباغين . فقال له الى متى والذى نفس محمد بيده ليتمن هـذا الأمر (أى الاسلام) حتى ان الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله على نفسه والذئب على غنمه

الشجاعة درع يتقى به الانسان نفسه من أنواع الحيوان المفترس اذا عدا عليه فاذا كان جباناً امتلأ قلبه رعباً ولو كان ذا سلاح لا يحتاج في استعماله لرد ذلك العادى الى كبير عمل لأن ما لديه من الرعب ينسيه ذلك السلاح أو يعوقه عن استعماله على وجهه فتذهب حياته (وهى أنفس شئ يدافع عنه) بشدة خوفـه وجزعه . انظر الى المهلب بن أبي صفرة وموسى بن نصير وما ترتب على شجاعتهما من حفظ كيان المسلمين وعظيم فتوحاتهم

الشجاعة الأدبية ألزم للكمال الانساني بالنسبة لأهل المدن الذين قامت دولهم بكف يد العدوان عنهم وردعت باغيهم بما لديها من القوانين ووسائل معاقبـة ذوى الدعارة والعيث وأمنتهم عدوان المفترس من أنواع الحيوان بما اتخذوه من المنازل والاسوار

وهذا النوع من الشجاعة يساوق الثبـات والمثابرة فانه لولا ثبات

ذوى المبادئ الشريفة على مبادئهم والاستدامة عليها لا يثنيهم عن عزمهم كثرة المثالب والمطاعن لما تمت تلك المبادئ واستقرت بعد أجيال

ذلك أمر معلوم مسطور في تاريخ عظماء الرجال انظر الى الوليد بن رشد والى سقراط الحكيم وغيرهم من فطاحل العلماء تجد أنهم لو لم يثبتوا على آرائهم بل نكصوا على أعقابهم أمام قوة معارضيهم لما انتفع بآرائهم ومؤلفاتهم . كم من شرور نشأت عن التردد في العمل والخور فى العزيمة كثيراً ما يعرف الرجل وجه العمل ويعجز عن سلوكه . كم من آمال كلها تحمس لا نتيجة لها الا الأقاويل . انما ينفع لسان صامت وفعل ناطق العمل خير ما تقام به الحجة على الحساد والجهلاء والظامة القادرين . العمل تحت سياج السكوت أنفذ للوصول الى القاصد وأمنع معقلاً يمنع من الحبوط . انا في حاجة الى قدر وفيرة نقاوم بها شرور الجهلة ونعتصم بها من سلطة ذوى الأيدى القاهرة فما أحوجنا في أعمالنا الممدوحة الى همم عالية وقُدَر طائلة مع الاناءة والحكمة التي نقاوم بها تلك الآراء المضادة والقدر الغالبة . لا نسعى فى هذا العصر الى استمالة كريم الأخلاق حسن التربية كما أن الرجل لا يرقى بظهر صلب بل بظهر ذى غضروف ليّن كذلك لا ترقى الرجال بقومها الا اذا لانت أقوالها وعظمت أعمالها . لا خير فى قول لم يصحبه فعل . اذا أراد الله بأمة شراً رزقها القول وحرمها العمل ليس الثبات والمثابرة على جليل الأعمال خاص بالرجال . عليك تاريخ قرة العين وجاندرك ترَ الثبات والمثابرة في أجلى معانيها . اقرأ تواريخ المخترعين وما لهم من المنافع تعلم أن الشجاعة اذا روعى فيها القوة الحكمية جلبت المنافع الجمة ودرأت المضار الكثيرة . لولا العالمون ذوو الشجاعة والثبات لما

تحولت الأمم من بؤس الى نعيم ومن انحطاط الى رقى ومن ظلم واستبداد الى عدل وشورى

هذه تواريخ الأمم الحاضرة يرشدنا قديمها وحديثها الى أنها لم تصل الى ما هى عليه الآن الا بأقلام الكاتبين واختراع المخترعين واتحاد عقلائها وثبات أبنائها فى جلب الخير ودفع الضرّ وهذا مما لا يحتاج الى ايضاح . انظر القدوة العظمى لبنى النوع الانساني وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما لاقوه من الشدائد فى تبليغ دعوتهم ترَ العجب العجاب فقد قام عليه السلام بالدعوة منفرداً بين قوم عرفوا باللجاج والتمسك بباطلهم وتظاهروا عليه صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وقالوا بعدم مصاهرة أسرته وبالجملة فقد لاقى فى سبيله الأهوال والمصاعب وهاجر من موطنه واحتمل ما لا يحتمله غيره كل هذا لم يرجعه عن دعوته وانذاره وتبشيره فلقد كان يمتلئ قلبه فرحاً اذا هدى الله به قلب رجل أو امرأة الى الدين الحنيف واذا تولوا وأعرضوا اشتد أسفه وحزنه قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقد كان عليه السلام أشجع الشجعان فقد ثبت فى غزوة حنين دون الكثير من أصحابه

قال علىّ كرّم الله وجهه لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً . وقال أيضاً كنا اذا احمرّ البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه وقال عمران بن حصين رضى الله عنه ما لقى رسول الله كتيبة الا كان أول من يضرب ولما غشيه

المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فما رؤى يومئذ أحد كان أشجع منه

وهذا شئ يسير من كثير اشتملت عليه سيرته الشريفة فلو لم تكن الشجاعة بمعنييها أمراً ممدوحاً تترتب عليه المنافع والفوائد لما كان عليه الصلاة والسلام أرقى الناس فيها . انظر الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فان شجاعته القلبية قام عليها بقاء الدين الاسلامى واتساع نطاقه

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتجت المدينة وأصبح الأمر فوضى . وقال عمر رضى الله عنه ما مات ولكنه رفع الى ربه وسيعود كما ذهب موسى وعاد الى قومه . ولزم على كرّم الله وجهه داره آسفاً حزيناً وسار عثمان رضى الله عنه هائماً فى طرقات المدينة . وجاء أبو بكر ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الغطاء عن وجهه وقبّله وقال بأبى يا رسول الله لقد طبت حياً وميتاً ثم خرج وقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . وما محمد الاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . قال عمر فكأنى لم أسمعها الاَّ من أبى بكر وكذلك قال غيره من الصحابة لما استولى عليهم من الدهشة لهذا المصاب الجلل . ولما كان رفيع المنزلة لديهم ورأوا عظيم ثباته وجميل صبره عولوا على الاستمساك بقوله فى هذا الحادث الخطير فسألوه عن مكان الدفن وعن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فأجاب عن ذلك كله بما فيه الفائدة ودفع الاضرار

ارتدت العرب ما عدا أهل المدينة ومكة والطائف ومنعت الزكاة

وهاب عظماء الصحابة رضوان الله عليهم قتالها لكثرتها وخشوا انتقاض الأمر ولكن ثبات أبي بكر وقوته فى دينه حملاه على ارجاعها الى ما كانت عليه قبل وفاة النبي عليه السلام . فقد قال والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه فى زمن رسول الله لقاتلتهم عليه . وقام بقتال المارقين وادحاض دعاويهم الكاذبة كمسيلمة الكذاب فما هو الا أن تمّ له بثباته وثقته بنصر دينه ما أراد وعلا أمر الاسلام وأخذ في الازدياد ولولا ذلك لعراه ما عراه بوفاة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا نظرنا الى ثبات أرباب المبادئ الحقة على ما أبدوه لأمتهم من الآراء السديدة والمنافع العظيمة التى بها يحسن حالهم وتتم مرافقهم والى شجاعتهم تلقاء ما اعترضهم من الاهوال والمصائب وقيام كثير فى وجوههم ولم يثنهم ذلك عن عزمهم حتى يتم لهم ما أرادوا أو يخلفهم عليه من يتممه ظهر لنا ان هذا الخلق من أعظم دعائم الرقى

اذا صارت الشجاعة خلقاً فى كثير من أبناء الأمة أصبح غالباً فى مجتمعاتها فان الخلق اذا خلا عنهُ الشخص منفرداً قد يتصف به اذا كان مع جماعة تضاموا على جلب المنافع ودرء المضارّ كما عقلوا فان منشأ الجبن خوف الضرر ولكن للاجتماع ما ليس للانفراد فان الجبان اذا كان فى جماعة يتوزع الخوف فيها على الافراد . وربما رجا أن يكون منشأ الخوف الذي هو الاضرار واقعاً على غيره دونه على أن ارادة تشبه الاشخاص ببعضهم فيما يدعونه كمالاً سريع الوقوع فهذا الخلق ينمو فى المجتمع المتكاتف أكثر منهُ فى الفرد فكيف به اذا كان نامياً فى الافراد

بان لنا أن اعتدال النفس الغضبية ينشأ عنه الشجاعة وأنها من

أجل الصفات الكمالية لما لها من الفوائد فى الغرض المقصود من الوجود الانسانى وهو الحياة السعيدة وأن هذه القوة اذا لم تكن على حد الاعتدال أخلت بالغرض المقصود من ذلك الوجود فانها اذا تجاوزت هذا الحد صاعدة ملكت صاحبها فيكثر غضبه ويمو خرقه ويعدم حلمه ووقاره وتقوى جراءته فيسرع عند الغضب الى الانتقام ممن غضب عليهِ فيقابله الآخر بمثل ذلك وربما كان أقرب الناس اليهِ . وممن يعتضد بهم ويتبع ذلك البذاء وأنواع السب وربما كان المغضوب عليهِ أكثر بذاءة من الغضبان أو أشد ساعداً فيعود عليهِ الضرر والمنقصة ويرجع على نفسه باللائمة . وقد يستعمل للوصول الى أغراضه متى وجد الموانع والعقبات الخبث والدهاء والمكر والملق (ولذا تجد من أكثر من مصاحبة الظلمة من الملوك قليل الغضب كثير المداهنة والملق) . واذا وصل الى ما يحاول مرات لا يحتمل اليسير مما لا يناسبهُ فيصخب ويغضب ويكثر ميله الى العسف والجور وذلك مما يوجب تنافر القلوب وازدياد الشحناء والبغضاء المؤدية الى بتر الصلة الاجتماعية ويئول الأمر الى الاكثار من القتل والسلب والنهب وان لم يصل الى غرض عظم لديه الحقد والحسد وذلت نفسه وأصبح ممتهناً متى تكرر ذلك . وفى هذا من الفساد ما لا يخفى . ولذا جاءت الشرائع وقامت الحكومات بردع الظالمين والمحافظة على حقوق الضعفاء حتى الولد من أبيه ووصيه والقاضى ومن يوليه أمره كى يأمن هذا المجتمع من تطرق الخلل اليه

فوائد العفة ومضار عدمها

فوائد العفة — علمت مما سبق أنها من أمهات الفضائل وأنها ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية وأنت ترى أن هذا الخلق اذا نزل عن الحد الوسط أضر بالجسم وأوجد فيهِ ضعفاً ربما أدى الى سرعة فنائه لأن الانسان اذا أهمل أمر غذائه ضعف بدنه وضاعت فائدة القوة التناسلية فلا تكثر البنين وهذا يستدعى قلة بنى النوع الانسانى ويتمادى ذلك شيئاً فشيئاً حتى يؤدى الى الانقراض وكذلك اذا أهمل الشراب واللباس وغيرهما من الملاذ البدنية التى يتوقف عليها نماء الجسم وحياته وزينته (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين) . ومثل ذلك بعض المحسوسات التى تزيد فى نشاطه من المسموعات والمشمومات والملموسات السائغة واذا تجاوزت ذلك الوسط صاعدة الى طرف النهاية نشأ عنها الشره في كل المشتهيات وذلك يستدعى الاكثار منها اكثاراً يشغله عن استعمال قوته العاقلة ويحبب اليهِ الاستئثار بها فيتعدى للوصول اليها حده ويتجاوز حقه وتمتد يده الى ما هو من حق غيره وهناك يحصل الجور والظلم واذ ذاك يقابله المظلوم بالمدافعة عن حقه فيتولد الخصام والشجار والحقد والحسد والبغض وقد يعود اذا ضعف أمام خصمه الى الخبث والحيل وأنواع الدهاء وربما ارتد خائباً مذعوراً فيورث تكرار ذلك في نفسه ذلاً وصغاراً (كما أسلفناه) يؤديان الى خمود النفس وكسلها . على أن ذلك اذا فشا بين الافراد انقبضت أيدى الضعفاء

عن العمل لعدم أمنهم على ثمرات أعمالهم من أيدى أولئك الأقوياء الشرهين الجاهلين كما أن أولئك يعتادون البطالة والكسل لاعتمادهم على أن ما بين أيدى الضعفاء تحت أيديهم الظالمة وكثيراً ما سمعت أن الشراهة فى ذلك تبعث على اقتناء الأموال من غير وجهها وهذا طريق ايباق وهلاك . ولو كان المتصف به أعظم قدرة وأوفر مالاً وأكثر جاهاً . انظر الى الملوك والعظماء وما جلبتهُ عليهِ شراهتهم والحوادث التاريخية حافلة بذلك

الكلام على الصفات المندرجة فى أمهات الفضائل وعلى أضدادها

أبنا لك فى الكلام على الحكمة فوائد اعتدال القوى التى تتوقف عليها القوة الحكمية بياناً تتضح به فوائد ذلك الاعتدال ومضار عدمه وقد اكتفينا به مع وجازته عن شرحه هنا لوضوح هذا المقام وضوحاً لا يحتاج معهُ الى زيادة بسط ولذا نقتصر على بيان فوائد اعتدال القوى التى ينشأ عنها كل من الشجاعة والعفة والعدالة فنقول بيّنا فيما سبق أن كبر النفوس على الحد الوسط من مقومات فضيلة الشجاعة . وكذلك النجدة وعظم الهمة والثبات والشهامة واحتمال الكد والسكون وهى أشياء متقاربة فى المعنى لا تختلف الا باختلاف الاضافات وتخصيص كل منها بشئ مخصوص والا فكلها ترجع الى احتمال ما ينبغى أن يحتمل فى طريق الوصول الى الخير وعدم احتمال غيره فى ذلك الطريق وعلى هذا فبيان فوائد بعضها على وجه عام بيان لفوائد البعض الآخر وهو يستتبع بالضرورة بيان مضار نقائضها ولنذهب بك هنا الى بيان مختصر واضح

أنت تعلم أن أي عمل من الأعمال النافعة للانسان لا يخلو من

متاعب غالباً فاذا لم يتدرع فيه صاحبه بدرع من الثبات ويقتحم المصاعب رجاء الثواب فى الآخرة والربح وحسن الاحدوثة فى الدنيا ويصبر على ما يلاقيه من المصاعب والكد بثبات جأش وقوة عزيمة حتى ينظم عمله تنظيماً يستعقب النتيجة لا يتم له ما أراده وكثيراً ما رأينا من رجال الأعمال صدق العزيمة والمثابرة على ما أرادوه حتى جنوا ثمرته أو خلفهم عليه غيرهم حتى جناها وانتفع بها بعدُ أفراد الانسان فاستحقوا من الناس ومن الله الذكر الحسن والأجر الجميل وأسماء أولئك الرجال أشهر من أن تذكر ألا ترى الى ما حصل من الأنبياء والحكماء وأرباب الاختراعات والقواد أنظر الى موسى بن نصير والمهلب بن أبي صفره وكثير من العظماء ولولا ذلك كله ما تم لمصلح اصلاح ولا لمخترع اختراع كما سبق القول

بان لك أن اعتدال الصفات المذكورة الذى تحصل عنه الشجاعة هو طريق الخير وأن عدم اعتدالها طريق الشر غير أنا نذكر أن من الصفات المقومة لها خلق الحلم وبيان أنه مؤد للخير وأن نقيضه طريق الشر قد ينكره بادئ بدء كثير من الشرسين ولذا آثرنا أن نتكلم على نقيضه وهو الغضب وما يجلبه من المضار ثم عليه وعلى ما يستعقبه من الفوائد لأن التحلية بعد التخلية

الغضب

علمت مما أبناه في الكلام على النفس أنها ارتبطت به لتدبر أحواله فاذا تصورت أمراً منافراً ظهر أثره عليه واستعقب دفع ذلك المكروه فيظهر تقطيب الوجه واللكم والضرب والشتم وعلى هذا فالغضب انما

يكون لدفع ما تتصوره النفس مؤذياً قبل أن يقع أو للتشفى بعد وقوعه وغايته الانتقام فاذا تصورت النفس ذلك ظهر أثره على القلب فحمى وغلا دمه وانتشر على الاعضاء الجسمية اذ أثره وهو الانتقام انما يكون على نسبة درجة تلك الحياة ووفرة الدم وحرارته مؤدية الى قوة الحياة المذكورة ولذا رأينا الغضبان اذا اعتقد أنه قادر على الانتقام من المغضوب عليه احمر وجهه وعيناه وغلبت قوته الغضبية قوته الحكمية فلا يدرك صواباً ولا يعرف حقاً بل ربما غلبت حواسه الظاهرة فلا يبصر ما بين يديه ولا يسمع قول من بجانبه فهو فى هذه الحال لا يعقل ولا يعى فتخرج أفعاله وأقواله عن الترتيب والنظام وتراه متغير اللون شديد رعدة الاطراف يتدفق الزبد من فيه على أشداقه اذا طلب منه اللين والرفق ازداد هياجاً فيمزق ثيابه ويكسر ما جاوره من الأمتعة ويضرب ويسب من ينصحه بل ربما سب الجماد والحيوان لا يرضى الا بالانتقام واذا لم يحصل عليه يتأوّه ويتحسر وقد يشتد الغضب فتقوى معه حرارة الدم وانتشاره فيستتبع ذلك الموت أو المرض. واذا اعتقد أنه لا يقدر عليه لا يغلى دمه ولا ينتشر على بدنه وأطرافه لأنه لا يحاول ذلك الانتقام المقتضى للقوة التى تكون بوفرته وحرارته لأن النفس لا تبغيه لما يترتب عليه من الاضرار ببدنها فينكمش الدم الى داخل فيصفر اللون كما يصفر لون الخائف واذا كان متردداً فى القدرة على الانتقام تعاقب اللونان المذكوران وغيرهما من الأعراض المتعلقة بالحالين

قد علمت أن اعتدال القوة الغضبية فضيلة وأن طرفيها رذيلتان مذمومتان فان الذى خمدت فيه هذه القوة المذكورة بحيث لا يغضب

غضباً يحركه الى الدفاع عن عرض أو مال أو عن أى نقيصة لا يحترم له جانب ولا يصان له عرض ولا مال وان الذى تجاوزت فيه هذه القوة حدها أشبه شئ بالحيوان المفترس فانه لا يستعملها كما رسمته له النفس الحكمية والشريعة الحقة فلا يبقى للمرء معها بصيرة ولا فكر ولا اختيار وسبب غلبة هذه القوة أشياء غريزية كاستعداد مزاجه لذلك وأشياء اعتبارية كان يخالط قوماً يتمدحون بالغضب والانتقام ويعدونه فضيلة وشجاعة على غير هدى ويثنون على من اتصف به ويحمدونه على ما كان منه فمتى كثر سماعه ذلك أثر فيه خصوصاً ممن يعتقد فيهم الفضل والكمال ويرى أنهم مستحقون للمحامد

أسبابه

يحصل الغضب عن الكبر والفخر والحمية ويهيجه العجب والمزاح والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهى أخلاق مرذولة مذمومة فينبغى (اماتة الكبر) بالتواضع والعجب بمعرفتك بنفسك والفخر بانك من جنس عبدك وخادمك فانتما سواء فى النسبة الجسمية والعقل والانسانية فانه لا فضل برفعة النسب ولا الجاه ولا الثراء لأن هذه أشياء متغيرة تعتورهى ونقائضها الأشخاص فرب خادم صار مخدوماً ورب وضيع نسب صار رفيعه وغنى أصبح فقيراً وأن التفاضل انما هو بالتقوى والأعمال قال تعالى يا ءيها الناس انا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال عليه الصلاة والسلام ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى وقال

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (واماتة المزاح) بالجد في طلب الفضائل والعلوم النافعة والافعال المرضية (والهزء) بالترفع عن ايذاء الناس وصيانة نفسك عن ان يستهزأ بك (والتعيير) باجتناب القول القبيح وصون اللسان عما لا يحسن من المقال (وشدة الحرص على مزايا العيش الناشئة عن فضول الأموال) بالقناعة (والمماراة) بالامساك عن الجدل والخلاف الا بحق ويكون على الطريق الموصلة للحق ولا تغضب الغير

هذا وقد علمت مما سلف أن من أسبابه أيضاً مخالطة الأشرار الذين يمدحونه و يعظمون من اتصف به فأعرض عن صحبة أولئك واصحب الأخيار ورُضْ نفسك بالحكمة والموعظة الحسنة وثابر على ذلك كله. يكن الاعتدال فى الغضب لك خلقاً. ومن هنا تستنتج علاج النفس التى ضعف أو محى فيها هذا الخلق فانحط عن حد الاعتدال لأن مضار التفريط فيه لا تنقص عن مضار الافراط هذا علاج الافراط والتفريط فيه قبل أن يظهر أثره وهو الغضب بالفعل وأما علاجه بعد ظهوره فيكون بتذكر فضائل كظم الغيظ وذلك بأن ينظر في أمر المغضوب عليه ويعلم أن هذا الغضب يولد العداوة والأحقاد وذلك أمر يوجب كدر العيش فانه دائماً يحاول التحرز منه والاستعداد للدفاع عن نفسه ومقابلته بالمثل أو أعظم وربما كان المغضوب عليه أنفذ رأياً وأقوى ساعداً فيعود حب الانتقام منه على يد مريده بالضرر ولانه مجلبة للحقد والحسد وتكرر الانتقام وذلك مذموم شرعاً ويكون أيضاً بتذكر الآيات والأحاديث والحكم والنصائح الواردة في فضل كظم الغيظ . قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء

والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين

وقال عليه الصلاة والسلام من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال عليه السلام أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة وقال أيضاً من كظم غيظاً ولو شاء لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وقال عمر رضى الله عنه من اتقَ الله لم يشفِ غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه يا بنى لا تذهب ماء وجهك لمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقد قيل حلم ساعة يدفع شراً كثيراً وقد أجمع بعض من العلماء العارفين على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما تقضي بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له بعض الحاضرين ياأمير المؤمنين ألا تسمع ان الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت ناراً فأطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كنّ فيه استكمل الأيمان بالله اذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وقال رجل لحكيم أوصنى فقال له لا تغضب قال لا أقدر قال ان غضبت فامسك لسانك ويدك

اذا علمت أن قوة الغضب لها وسط وطرفان وأن الوسط فضيلة والطرفين رذيلة فاعلم ان ما ورد فى ذمه فهو وارد على طرفى الافراط

والتفريط وان ما ورد فى مدحه فهو بالنسبة للحد الوسط الذى هو فضيلة ألا ترى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أشداء على أعدائهم رحماء بينهم . قال الامام الشافعى رضى الله عنه . من استغضب ولم يغضب فهو حمار . وقدمنا القول فى بيان ما ينشأ عن ذهاب هذا الخلق من فقدان الغيرة وغيرها من الاضرار وذلك لأن التفريط المذكور ينتج عن قلة الأنفة مما يؤنف منه كترك تعرض الغير لما يحق على الشخص المدافعة عنه واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس وينشأ عنه عدم الغيرة على الحرم وذلك خنوثة قال عليه السلام ان سعداً لغيور وأنا أغير من سعد وان الله أغير منى وانما مدحت الغيرة لما يترتب عليها من حفظ الانساب فانه لو تسومح فيها لاختلطت

ولذا قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها . وضعت الصيانة فى نسائها . وينشأ عنه أيضاً الخوَر والسكوت عن المنكرات ولذا قال عليه السلام خير أمتى احداؤها يعنى فى الدين . وقال تعالى . الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . ولو مدح اضمحلال هذه القوة وأهملت بحيث لم تستعمل فى موضعها لتعطلت العقوبات والحدود فعاث أرباب الدعارة فى الأرض فساداً لعدم ما يردعهم عن ارتكابها . قال تعالى ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب . فعلى هذا تكون هذه القوة من الأخلاق الفاضلة الضرورية لحصول الخير على شريطة ان تستعمل فى موضعها كما تسنه لها القوة الحكمية

هذا الخلق من مقوّمات الشجاعة ان كان على الحد الوسط كما تقدم وذلك بان يحلم فى الحال التى يحمد فيها على ذلك دون سواها وضابط هذا أن يكون الخير والاصلاح فيه دون ما يستتبع فيه الحلم الشر والفساد فيحلم اذا كان حلمه رادعاً لذوى الأفساد عن افسادهم داعياً الى عودهم باللائمة على أنفسهم فانه فى هذه الحال مجلبة لحب صاحبه ويمن له ووسيلة للخير. قال عليه الصلاة والسلام الرفق يمن والخرق شؤم وقال أيضاً. من يحرم الرفق يحرم الخير كله. وقال ان الرفق لا يكون فى شئ الاَّ زانه ولا ينزع عن شئ الاَّ شانه ويغضب اذا كان الحال بخلاف ذلك فالحلم عن كرائم الأشخاص الذين يخجلهم الاعراض عن هفواتهم ممدوح (لا سيما اذا كان من ذوى القدرة والبطش) دون الأشرار الذين يطمعهم فى ارتكاب ما لا يليق ويحسبونه خواراً وضعفاً وقد يكون هـذا الخلق سهلاً لبعض الأشخاص الذين فى طباعهم الميل الى عدم الغضب دون سواهم وهؤلاء لا يحصلون عليه الاَّ بأخذ النفس ومجاهدتها فى كظم الغيظ والتحلم ويتمادون على ذلك مع الروية والفكر وتعقل أنه الأحسن والأجمل فى صيانة النفس من سب السابين ومكافحة الخصوم وأن فيه حسن الأحدوثة وجزيل الثواب حتى يعتادوه ويصير خلقاً وهو من وسائل جلب الخير ودفع الضرر وداعى الطمأنينة وعـدم الاشتغال بالخصومات وجالب الثواب فى الآخرة ولذا جاءت الشريعة المطهرة بمدح من اتصف به واعظام الأجر له. قال عليـه الصلاة والسلام اطلبوا العلم

واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم . وقال أيضاً ان الله تعالى يحب الحيي الحليم المتعفف ويبغض البذى الفاحش السائل الملحف وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هى يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك . ومن دعائه عليه السلام اللهمّ اغننى بالعلم وزيّنى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجمّلنى بالعافية قال على كرّم الله وجهه ان أول ما عوّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك الاّ بقوة العلم وقال لعمرو بن الأهتم أى الرجال أشجع قال من ردّ جهله بحلمه قال أى الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه وقال أيضاً لعرابة ابن أوس الذى قال فيه الشاعر

رأيت عرابة الأوسىّ يسمو الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال ابن عباس لغلامه يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحيا وقال الخليل بن أحمد من أساء فأحسن اليه فقد جعل له حاجز من قبله يردعه عن مثل اساءته وقال وهب بن منبه من يرحم يُرحَم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يُغلبْ ومن

يعجل يُخطيء ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يُعْصَم ومن يتبع وصية الله يُحْفَظْ ومن يحذر الله يأمن ومن يتولى الله يُمْنَعْ ومر المسيح بن مريم عليه السلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً فقال لهم خيراً فقيل له انهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان عليه السلام ثلاثة لا يُعرفون الاّ عند ثلاثة لا يعرف الحليم الاّ عند الغضب ولا الشجاع الاّ عند الحرب ولا الأخ الاّ عند الحاجة

الحسد

اعلم أن الغضب قد يكظم لعجز عن التشفي في الحال فيكمن في القلب وينقلب حقداً على من عجز عن الانتقام منه بمعنى ان يلازم قلب الحاقد دوام استثقال وبغض من حقد عليه والنفار عنه ويتولد عن ذلك أمور منها الحسد وهو تمني زوال النعمة عنه فيغتم ان أصابته نعمة ويشمت ويفرح ان ألمت به مصيبة ومنها هجرانه ومصارمته وان وصلك ولاينك أو الاعرض عنه استصغاراً له أو التكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر أو تحاكيه استهزاء به وسخرية منه أو تؤذيه بما يؤلمه من ضرب وغيره أو تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظامة وكل هذه أخلاق ذميمة لما يترتب عليها من تنافر القلوب واقامة الشرور مقام الخيرات قال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضاً . وقال في معرض الذم واذا مروا بهم يتغامزون . وقال انا نسخر منكم كما تسخرون . وقال ومن شر حاسد اذا حسد . وقال عليه السلام في حق الرحم انها تقول

اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني . وقال أيضاً اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب وقال المؤمن ليس بحقود

أسباب الحسد

قد وضح لك مما سبق حقيقة الحسد ونذكر لك أسباب الاتصاف بهذا الخلق الذميم . الاول (الحقد) كما قدمنا لأن من آذاه شخص أو حال بينه و بين غرضه وعجز عن الانتقام منه أبغضه ورسخ في قلبه الحقد عليه وتمنى أن تذهب عنه النعم وتتولاه النقم وهذا هو الحسد وربما أحال ذلك على الزمان لما له عند الله من عظم المنزلة فاذا حصل المرغوب فيه عدّ ذلك كرامة لنفسه عند ربه وأنه انتصف له منه لاستحقاقه التكريم واستحقاق الحسود الاهانة والذّلة فكلما أصابت محسوده بلية فرح بها واستبشر ووثق بمكانته عند خالقه . الثاني (التعزز) اى عده نفسه عزيزاً لا يترفع أحد عليه فاذا زاد جاهه أو ثراؤه خشى أن يكون داعياً للاستعظام والاستكبار عليه وهو عزيز النفس لا يرضيه ذلك . الثالث (الكبر) فاذا رأى غيره داناه أو فاقه في شيء من وسائل العظمة خشى ألا يقبل استكباره واستعظامه عليه لأنه لا يفضله في أسبابه . الرابع (التعجب) بأن لا يرى سبباً قوياً اقتضى هذه النعمة للمحسود فيتمنى زوالها لما تخيله له نفسه بأنه أحق بتلك النعمة من المحسود لما لديه من وسائلها دونه . الخامس (الخوف من فوات المقاصد) وذلك بأن يرى أن المحسود لما لديه من النعم ربما يزاحمه في أغراضه الشهوية من الثراء والجاه والرئاسة والتمتع باللذات . السادس (خبث النفس وشحها بالخير للناس) فقد تجد من

لا يتطلع الى ثراء ولا جاه ولا يخشى مزاحمـة فى غرض من أغراضه اذا وصف لديه حسن حال شخص فيهما أو فى غيرهما مما يرغب فيه يشق عليـه ذلك ويبدو الحزن على وجهه مع خلوه من الأسباب السالفة واذا ذكر عنده بؤس شخص وسوء حاله فرح وهش مع عدم توفر شئ لديه من تلك الأسباب واعلم أن الحسد من قبيل المشكك فقوته بوفرة كثير من الأسباب السابقة وقوتها وضعفه بقلتها وضعفها ومن هنا نعلم سبب كثرة الحسد وقوته بين المشتركين في مهنـة واحدة والجيران والأقارب وذوى الطبقة الواحدة فالحسد بين الطبيبين المتجاورين أكثر منه بين المتباعدين لاشتداد المزاحمة بينهما فى الكسب بخلاف ما اذا كان أحدهما فى بلد أو اقليم والآخر فى بلد أو اقليم آخر وكذلك لا تجـد حسداً بين الطبيب والمهندس فاذا وجد كان قليلاً ضعيفاً وتجده بين الأقرباء فان التعجب الذى هو من أسباب الحسد متوفر لديهم فان أصلهم واحد والتربية واحدة فلا يرى الحاسد سبباً اقتضى اختصاص المحسود بما لديه من النعم وترى العلماء يحسد أحدهم الآخر اذا كانوا ولعين بحسن الأحدوثة والمدح فان أحدهم يحب أن يختص بالثناء عليه لعلمه وتفرده فى ادراك غوامضه أو لما يصل اليه من الكسب بسبب ذلك التفرد وعلى هذا اذا كانت كثرة حصول الأمر الذى فيه المزاحمة لأحدهم تقلّل من حصوله للآخر جاء الحسد ويكون على قدر قوة المزاحمة وتعدد الوسائل واذا كانت لا تقلل من حصوله للآخر لا ينشأ عنها الحسد وذلك كالعلم من حيث هو بصرف النظر عن حب الاستئثار بشهرة التفرد فيه واكتساب المال والجاه بواسطته فان الوقوف على حقائق المسائل تتناولها كافة القوى المدركة

ولا يمنع تناول قوة لهـا تناول أخرى اياها بخلاف الأموال والمقتنيات والتفرد بالصيت والجاه . واعلم ان الغبطة (وتسمى بالمنافسة أيضاً) شئ آخر خلاف الحسد وان أطلق كل منهما على الآخر اذ هى تمنى مثل ما للغير من النعم وهى ممدوحة فى الخيرات والأخلاق الفاضلة فانها تولد فى الانسان الجد والنشاط فيعمل لأن يكون كغيره فمتى اتصف بها أبناء الأمة الواحدة نهضوا من رقدتهم وأجادوا الفكر والعمل فيما يذهب بهم الى بحبوحة النعم وتسابقوا فى ميادين الأفكار والأعمال حتى يصلوا الى ما وصلت اليه تلك الأمم الراقية فهى من الأخلاق الحسنة فان فضيلة الخلق ورذيلته انما هى بالنسبة لما يترتب عليه من النفع أو الضر قال تعالى ان الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وقال أيضاً وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين وليس معنى المسارعة الاّ المسابقة وهى المنافسة . وأما الحسد فرذيلة لما يلازمه من العداوة والبغضاء المؤديين الى التشاجر والتخاصم وهو داعى الشرور وتنافر القلوب واختلاف الوجهة وذلك يستتبع الابتعاد عن الأعمال الخيرية القومية واشتغال كل باضرار الآخر فيكثر الفساد وتعم الاحن وتفسد ذات البين ويفقد التضامن بين أفراد الأمة فلا يتم لها النهوض والرقىّ على أنه مجلبة الهم والحزن لصاحبه فكلما رأى محسوده فى نعيم ذاب حسرة وامتلأ قلبه حزناً وهذا بيّن لا يحتاج الى ايضاح ولذا جاءت الشريعة مملوءة بذمه والحض على تركه قال تعالى فى معرض الذم أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال أيضاً

ومن شر حاسد اذا حسد وقال عليه الصلاة والسلام لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال أيضاً لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا وقال اياكم والحسد فانه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب

علاج الحسد

اعلم أنك اذا تحققت من أن التخلق بالحسد مجلبة للضرر فى الدين والدنيا ولنفع المحسود فيهما سهل عليك مجاهدة نفسك فى الابتعاد عنه بالروية والفكر وردعها شيئاً فشيئاً حتى تسهل عليك مجانبته (هذا علاج ذلك الخلق المرذول) أما كونه ضرراً فى الدين فلأن الحاسد ساخط على توزيع حسنات الله على عبيده غير راضٍ عن انعامه جلَّ شأنه على المحسود بما أوجب ذلك الحسد فنسب ربه الى عدم العدل وهو أمر منهى عنه فى الشريعة ولأن الأتقياء الكملة يفرحون باحسان الله على خلقه ويتمنون لهم الفلاح والنجاح وهذا فى الأنبياء عليهم السلام أكمل منه فى غيرهم فالمتصف به خارج عن دائرة الأتقياء الكملة داخل فى دائرة الأشرار الفجرة وأما كونه ضرراً فى الدنيا فلأن صاحبه يكثر همه ويزداد حزنه كلما رأى دوام النعم على المحسود فكيف به اذا رآها فى ازدياد ولا قبل له بمنع تتابع احسان الله على خلقه أو اذهاب ما هو حاصل منه لما قدمنا من أن الارادات البشرية والأقدار الانسانية لا استقلال لها فى ايجاد شئ أو عدمه فاذا دام الانسان على هذا الخلق تملكه الأسف والهلع واستمر حزين القلب غير قرير العين وربما استتبع ذلك عدم نظام أعماله

واضطرابه فى حركاته وسكناته وظاهر ما فى هذا من الأضرار الدنيوية وأما كونه نافعاً للمحسود فيهما فلأنه تزاد به حسناته ألا ترى أن الحسد يحمل على الغيبة والنميمة والسب وغير ذلك مما حظره الشارع وفيه زيادة حسنات المحسود وأما فى الدنيا فلأن عدوه الحاسد له مهموم مغموم كلما رأى لديه نعمة من نعم الله امتلأ فؤاده أسفاً فيعيش عيشة شقاء وبؤس وهذا شئ يوجب فرح المحسود فاذا تحقق الحاسد أنه يحسده جلب على نفسه ما جلب من الشر ولعدوه ما جلب من الخير علم أنه اذا اتصف بهذا الخلق كان من أشد الناس اضراراً لنفسه ونفعاً لعدوه فهو به عدو لنفسه صديق لعدوه وهذا غاية الغباوة والخرق فاذا تصور كل هذا سهل عليه أن يحمل نفسه على التودد لمن يرى له فى قلبه خلق الحسد ويصله ويتقرب اليه بانواع القرب الممدوحة ويكثر من الثناء عليه ولا يسترسل مع ما يجده له فى نفسه من البغض والأسف من وصول النعمة اليه بل يظهر له بضد هذا كله فان آنس منه المحسود هذه الخلال الممدوحة قابله بمثلها فتنكسر سورة حسده فان النفوس جبلت على الميل الى من تلطف بها ووصلها واذا تكرر هذا جملة مرات زال الحسد وانقلب التقاطع مواصلة والحقد مقة فان لتكرار وسائل المحبة فى القلوب تأثيراً شديداً فى ازالة ما كمن فيها من الأحقاد واقامة المحبة والألفة مقامها وكذلك وسائل البغضاء والشحناء اذا تكررت أثرت فى القلوب فتزيل منها الألفة والمحبة وتقيم اضدادها مقامها وقد تغالطك القوة الغضبية فتبرز لك المقة والثناء عليه فى معرض الذلة والخنوع كى تأنف منه وتستمر على الحسد والبغض فلا تعبأ بهذه المغالطة الباطلة لانها ليست من أخلاق النفوس الطاهرة الملكية

قد انتهى بنا القول فى بيان فضائل اعتدال القوي التى يكون عنها اعتدال القوة الغضبية ومضار طرفى كل واحدة منها ونتكلم الآن على فوائد اعتدال القوة الشهوية وهى المسماة بالعفة فنقول ظهر لك مما سلف أن هذه القوة تكون من اعتدال قوة الحياء والدعة الى آخر ما ذكرناه

الكلام على الحياء

قد قلنا فيما سبق انه انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من الذم الصادق وظاهر أن هذا الخلق سياج يحول بين النفس و بين اتيانها قبائح الأشياء فالمتصف به اذا همَّ باتيان قبيح يجد من نفسه مانعاً يعوقه خشية أن يؤثر عنه فتسوء ذكراه بحق فيتركه ولو تاقت اليه فلا يرتكب أمراً يستوجب العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو يستعقب ذماً ولوماً فالحيي قريب من الخير بعيد من الشر قال عليه السلام من لا حياء فيه لا خير فيه وقال أيضاً ان مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت . وما قلناه هو الحد الوسط الممدوح بخلاف طرف الافراط الذى هو مجاوزة الحد فى الحياء حتى لا يحسن قولاً ولا يبدى رأياً وقد يحصر نفسه عن اتيان ما ليس محظوراً مما فيه الفوائد فان هذا مذموم لأنه من ضعف النفس جالب للشر دافع للخير وكذلك التفريط فيه فانه قحة تستتبع اتيان ما حرمه الشارع وما تنبو عنه النفوس الكريمة ولا يخفى ما فيه من الضرر . هذا وخلق الدعة التى هى سكون النفس عند الشهوة (فلا يستفزها ما تشتهى من مأكل ومشرب واستمتاع) ملاك الفضيلة لأنَّ النفس اذا سكنت واطمأنت كانت بمأمن من أن تسترقها

الشهوات فتمتلكها وتنحط من أفق الانسانية الى أُفق الحيوانية وذلك غاية الضرر والبعد عن الخير كما قدمناه بخلاف ما اذا كانت مطمئنة ساكنة فانها تكون سهلة القياد الى القوة الحكمية تتصرف على ما ترسمه لها فلا تتناول من الشهوات الاَّ ما هو ضروري لبقاء الجسم ودفع الضرر عنه وما يقتضيه التناسل

الصبر

هو مقاومة القوة الغضبية والشهوية في مقتضياتهما الخارجة عن حد الاعتدال ولا يكون الاَّ عن علم بمضار الاسترسال معهما في تلك المقتضيات فهو من الأخلاق الانسانية لا البهيمية فان أنواع الحيوان مسخرة لهاتين القوتين وليس لها قوة حكمية تصل بها الى ادراك الحقائق فتعلم ما يترتب على الانهماك الزائد من المضار حتى تقاومها في ذلك الاسترسال وهو نوعان جسمي ونفسي فالأول تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ويكون لذوي الجسوم الخشنة وهو اما صبر على فعل ككثرة المشي والحمل أو انفعال كالمرض والضرب والجرح والقطع . والثاني نفسي وبه تناط الفضيلة وهو قسمان صبر على عدم تناول مشتهى ويسمى عفة وصبر على تحمل مكروه وتختلف أسماؤه باختلاف الاضافات فان كان في عراك وصدام سمي شجاعة وضده جبناً وان كان في امساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلماً وضده تذمراً وان كان في ملمة محزنة سمي سعة صدر وسمي ضده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان في امساك كلام في الضمير سمي كتمان السر وضده الافشاء وان كان في الامساك

عن فضول العيش سمى قناعة وزهداً وضده حرصاً وشرهاً وان كان فى احتمال الغنى على وجه ممدوح سمى ضبط النفس وضده الدّقع (وهو الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر) والبطر أيضاً ومن هنا تعلم أن هذا الخلق من مقوّمات فضيلتى الشجاعة والعفة

والناس فى صبرهم على مقاومة تينك القوتين ثلاثة أقسام قسم يقاوم جميع ما تنبغى فيه المقاومة من أمر القوتين المذكورتين فلا تبقى لهما قوة المنازعة وهؤلاء هم الكملة الذين قوى يقينهم وآثروا الفضائل النفسيّة على اللذات الحيوانية فاطمأنوا بالسير على الطريق القويم وهم قليلون جداً وقسم لا يقاوم فى شئ من تلك الأشياء وهؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلا لأن البهائم لم تخلق لها النفوس المدركة للمنافع والمضار حتى تتسنى لها هذه المقاومة بخلاف أولئك فانهم عطلوا ما منحهم الله من تلك النفوس القادرة على تصور ذلك وعلى المقاومة فيما تركه مجلبة للشرور والاضرار وعلامة هذا الفريق أنك ترى لديهم يأساً وقنوطاً وغروراً بالأمانى فاذا وعظ أحد منهم قال انى مشتاق الى التوبة ولكن أسباباً حالت دونها فلست أطمع فيها أو قال ان الله غفور رحيم فلا حاجة الى التوبة فمثل هذا استرقته شهوته فلا يعمل فكره الاّ فى استنباط الحيل التى توصله اليها

وقسم يقاوم فى البعض دون البعض وهو أرفع من الثانى وأحط من الأول فهم من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فاذا أكثروا من النظر والفكر وحملوا أنفسهم على المقاومة ارتقوا الى الدرجة العالية شيئاً فشيئاً وان أهملوا هووا الى الدرك الأسفل

واعلم أن الانسان الراغب فى السعادة لا يستغنى عن هذا الخلق فى حال من الأحوال وذلك لأن كل ما يكون للانسان اما أن يكون موافقاً لهواه ورغائبه كالصحة والثراء والجاه وموازرة العشيرة الكثيرة ووفرة أسباب الرزق وكثرة الأنصار والأحباب وما أحوجه الى الصبر فى هذا كله فيقاوم ما يستتبعه كل ذلك من الأحوال الذميمة مثل الكبر والزهو والانهماك فى الملاذ والمبالغة فى الانتقام والبذاءة فان توفر هذه الاشياء المرغوب فيها لديه يبعث فيه الميل الى تلك المذمومات فان لم يقاومه بصبره واسترسل فى الانهماك عاد على جميع ذلك بالنقص تدريجاً حتى يزول — هذا مع ما يكون عليه من الحسرة والغم الناتج عن ذلك الاسترسال فان الصبر على الشىء مع القدرة عليه أصعب منالاً وأشد مراساً لأن ميل القوتين الغضبية والشهوية الى مقتضياتهما يعضده توفر وسائل الوصول اليها فتعظم مقاومتهما للقوة الحكمية بخلاف ما اذا كانت الوسائل المذكورة مفقودة ولذا قيل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما اتسع الفتوح للصحابة رضى الله عنهم وتوفرت لديهم الأموال قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ومن ثم حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد قال (ياءيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله — وقال — ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عليه السلام — الولد مبخلة مجبنة محزنة — واما أن لا يكون موافقاً لهواه ورغائبه وذلك أقسام ثلاثة ما يكون له فيه اختيار كعامة الطاعات والمعاصى ولولا الصبر على ما فيها من الأعمال وبذل الأموال وحرمان النفس من ملاذها الحيوانية واخضاعها للقيام بأمر

التكليف الشرعى لما استقام فيها أمر الانسان وما لا يكون له فيه اختيار بحال من الأحوال كالمصائب والنوازل التى تنزل بالشخص من فقد قريب أو صديق أو مرض أو ضياع مال الى غير ذلك وهذه من المواطن التى يصعب فيها الصبر فاذا لم يأخذ الانسان نفسه فى هـذه الحال بالعبر والمواعظ بأن ذلك لا يسلم منه أحد وأن الجزع والهلع قد يستعقب سقم الجسم وضياع العقل بدون جـدوى وأن المصائب تبدو كبيرة ثم تصغر شيئاً فشيئاً وأن الحياة لا تخلو من الاكدار ويعتضد على ذلك بما أعد له من الأجر وجميل الذكر استعصى حزنه وقوى هلعه ولما كان مثل تلك النوازل من مزالق أقدام ذوى الاحتمال والثبات أعظم الله لهم الأجر قال تعالى (انما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال أيضاً (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

وما لا يكون له فى وجوده اختيار وله اختيار فى دفعه كما اذا أوذى بقول أو عمل أو جنى عليـه فى نفسه أو ماله فان الصبر عن مقابلته بالحلم وكظم الغيظ فى هذه الحال فضيلة تعقبها الخيرات كما أبناه فيما سلف وضح لك من هذا كله أن الصبر لا مندوحة عنه لسعادة الانسان فى عموم الاحوال وأنه كلما تعددت أسباب الميل الى الرذيلة قويت وتغلبت على الانسان فقادته اليها ومن أسباب ذلك اعتيادها فانها متى اعتيدت أصبحت خلقاً راسخاً واستهان الناس باضرارها ومذامها ولو كانوا على جانب عظيم من بعض الصفات الفاضلة انظر الى خلق الغيبة فان كثيراً من الاتقياء والعلماء الفضلاء لما اعتادوها وجعلوها موضوع المسامرة فى

منتدياتهم وايناس زُوَّارهم وأصدقائهم كيف نمت فيهم ومرنت عليها ألسنتهم ولم تنكرها قلوبهم مع ما اشتملت عليه الشريعة من الوعيد لمرتكبها فبان من هنا أن للعادة دخلاً فى الأخلاق كما ان لمعاشرة الأخيار والأشرار دخلاً فى ذلك أيضاً

علاج ضعف هذا الخلق وما يستعان به عليه حتى يرسخ

قد بان لك مما سبق أن الصبر الممدوح يختلف باختلاف الاضافة وعلى هذا فكل نوع من أنواعه له علاج خاص به فان اختلاف الأمراض يوجب اختلاف عللها وأسبابها ولا معنى للعلاج الاَّ اضعاف سببه وتقوية ضده واذن فالصبر عند الملمات والنوازل يكون بتذكر الاجر وعدم فائدة الجزع فيما نزل والتأسى بالغير فان عموم المصيبة يخفف وقعها ويقوى من نزلت به على احتمالها والاشتغال بما تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب فى تلك الحال وما شاكل ذلك والصبر عن الغضب المسمى حلماً انما يكون بالتذكر فيما يستعقبه الغضب من المضار والحلم من المنافع كما قدمناه والصبر على حفظ الاسرار وعدم افشائها المسمى كتماناً انما يكون بتذكار أن افشائها ولو لواحد من الاصدقاء يقتضى اذاعتها وقد يترتب على ذلك الضرر وعدم حسن الأحدوثة وانقطاع صلة المودة بينك وبين من أفضى اليك بها معتقداً فيك الكتمان وحسن السيرة وجميل الصداقة على أن عدم افشائها لا يكلفك عناء وأن جنوحك الى عدم صيانتها متعللاً بزخارف العلل الباطلة ليس الاّ من وهن عزيمتك وضعف قوة نفسك وهذا أمر مذموم فمتى تصورت كل هذا تصور الموقن به حملك على

مقاومة ما توسوس به اليك نفسك مما يباين الفضائل الممدوحة

والصبر على عدم فضول العيش من الثراء والجاه وأنواع اللذات الجسمية المسمى قناعة انما يكون بالتفكر فى أن هذه الأشياء تطرأ وتزول وليس فيها من الفضائل الانسانية ما يوجب العناية بها فليس لك من مالك الاَّ ما أكلت فأبقيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وأن الصبر مع الحاجة لا يقل أجراً عن الغنى مع البذل وبالجملة فان كل شئ انما يستعان على تقويته بالوسائل التى تقتضيه وتذهب بضده ولا نريد بمدح الصبر والاعراض عن ضده الاَّ الحد الوسط فانه هو الممدوح فى كل الخلال الانسانية بخلاف الافراط والتفريط وعلى ذلك فمن الخلال الشريفة الجد فى الحصول على المال والثراء من وسائلهما الشريفة وطرقهما المباحة على شريطة أن لا يتجاوز الحد الوسط فى ذلك فلا يمتنع عن البذل من ماله لشخصه أو لغيره ممن يستحقه فيبخل على نفسه بوسائل الغذاء والدفء والتعليم وعلى من عليه نفقته كذلك ولا يقيم بماله أو جاهه أود فقير ولا ينصر مظلوماً ولا يساعد أبناء أمته وفقراء عشيرته بما لديه من ثراء وجاه فان هذا غاية الانحطاط فى الأخلاق الانسانية الفاضلة ومجلبة سوء الأحدوثة فى الدنيا وعدم الثواب فى الآخرة

السخاء

قد يراد بالسخاء الغريزة الانسانية التى بها يسهل على الشخص البذل سواء بذل او لا غنياً كان أو فقيراً ويقابله الشح وقد يطلق على البذل بالفعل ويقابله البخل وهذا الخلق من أحسن الأخلاق الفاضلة متى كان

على حد الاعتدال فان النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها فتنقاد الى صاحبه العفاة وتسترق له قلوب الأحرار كما قيل

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الحر احسان

ولا نريد به هنا بذل المال لا غير بل نريد به ما هو أعم من ذلك كبذل الجاه فى انقاذ مظلوم وقول معروف يجبر خاطر كسير (قال تعالى قوله معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ومنح ذوى الحاجات ما يسد عوزهم كأبناء السبيل وضعفاء الامة وفقرائها والمصابين ما يدفع ألمهم ويخفف نوازلهم أو يسهل طرق الكسب الى البائسين كتعليمهم الصنائع والعلوم التى يستدرون بها أرزاقهم فان المال العظيم والخير الوفير لا يمدح اقتناؤه الاَّ اذا بذل فى نيل المكرمات ووسع به على الاسرة ومن فى حكمها من الجيران والاصدقاء وأهل المحلة والبلد ومن تجمعك معهم جامعه فلا يمدح تشعب الناس فى طرق جمع المال الاَّ لهـذه الاغراض لا لأن يخزن ويحرم من فائدته جامعه ومن يعولهم وذوو الحاجة من جيرانه وأهل بلده وما ذم جمعه الاَّ اذا كان لا ينفع به نفسه ولا يغيث به لهيفاً ولا يقوَّم به أود فقير من أبناء أمته فان مثل ذلك تنفر منه القلوب وتفرح بمصابه جيرانه وأهل محلته ووطنه ويحيي هذا الخلق عدم اليأس من توافد نعم الله تعالى فلا يخشى الباذل ببذله فقراً ولا يتوقع ببخله ثراء فان مال الله غادٍ ورائح فربّ بذول زاد غناؤه وبخيل أفقره بخله قال الله تعالى (الشيطان يعدكم بالفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم) البخيل حارس المال لا مالك ولا فائدة لحارس ملك غيره فلا يفيد نفسه ولا غيره

وليس بنافع ذا البخل مال ولا مزرٍ بصاحبه السخاء
ولا يعطي الغنى غنى لحرص وقد ينمى على الجود الثراء

ويحسن أن يكون البذل لما ينبغي مما يجوز بذله غير متجاوز فيه الحد الذي يذهب بثرائه فان ذلك سفه يقتضى الحجر شرعاً ولا لغير محتاج ذي ثراء عظيم وعلى الوجه الذي ينبغي فلا يبذل لغيره من ماله ما يوصله الى نقيصة كالقتل والسكر والمقامرة الى غير ذلك من الأشياء المذمومة الممنوعة شرعاً واذ قد علمت ما له من الثمرات الممدوحة لما يترتب عليها من الفوائد فى المجتمع الانساني كالتحاب والتواد والامن من التباغض الناشئ من استئثارك بالملاذ دون جيرانك الفقراء وأهل وطنك الذين غلبتهم المسكنة على أمرهم استئثاراً قد يحملهم على السعى فى اتلاف نفسك أو مالك علمت قبائح البخل المذمومة لما يترتب عليها من العداوة والبغضاء المضعفة لرابطة الجامعة الانسانية ومن هنا تعلم حكمة مشروعية الزكاة فى الشريعة الاسلامية اذا عقلت ذلك كله وضح لك أن البخل خلق ذميم وعليك أن تعالجه بالتفكر فى مضاره ومنافع الجود المعتدل وأن مالك وجاهك عارية لديك وأن ليس لك منهما الا الأحدوثة الحسنة والثواب العظيم وان ما تبذله لمستحقه قرض حسن ربما يردّ عليك في حياتك الدنيا ويجازيك الله عليه باعظم منه في الآخرة

قد أوضحنا ما يهم من القول في أغلب القوى المندرجة في قوة العفة التى هى اعتدال القوة الشهوية وبقى علينا الكلام في خلق الورع وهو على ما قدمناه (ملازمة الأعمال التى للنفس فيها كمال) كالوفاء بالوعد وترك المراء والجدال والسب والمزاح والسخرية وافشاء السر (وكل هذه

أشياء واضحة سبق الكلام على بعضها ويعلم منه حال البعض الآخر) ومن الورع المذكور الصدق وترك الكذب والغيبة والنميمة وهذه الصفات كما تندرج في خلق العفة يشملها خلق الشجاعة من جهة كون بعضها ينشأ عن الحقد كالغيبة والنميمة والمراء والجدال والسب والسخرية والمزاح المذموم وعدم العناية بالغير كالكذب وخلف الوعد لغير ضرورة كما يعلم من البيان الذى أسلفناه

الكلام على الغيبة والنميمة

اعلم أيها الأخ أرشدك الله الى ما فيه فلاحك ونجاحك أن الغيبة من أكبر الرذائل التى عمت بها البلوى وانك بعد معرفة حقيقتها تجدها لا يخلو منها مجتمع ولو لعبادة أو لمذاكرة علم أو حث على فضيلة أو سعى في رقى طائفة أو أمة ونذكر لك حقيقتها هنا حتى تنجلى لك صحة ما قلناه هى ذكرك أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء كان متصفاً به أو لا ويماثل ذلك اشارتك الى غيرك (١) غمزاً أو لمزاً أو التشبه بالمغتاب ما دام شئ من ذلك كله دالاً على اتصاف الشخص بما يكره أن ينسب اليه ولها أسباب كثيرة منها حقده عليه فيشتفى منه بلسانه أو بغمزه ولمزه مثلاً ومنها الحط من شأنه لما يراه فيه من المزاحمة في أمر من الأمور الممدوحة لدى الناس حباً في التفرد بالكسب والشهرة وبصفة من الصفات الممدوحة ومنها ادحاض ما يتوهم حصوله منه فيصفه بالكذب أو الحسد أو النميمة حتى اذا تكلم في شأنه يعتبر قوله ناشئاً عن واحدة من تلك الاحوال فلا

(١) اللماز واللمزة العياب والهمز كالغمز وزناً ومعنى وهو غمز الشيء باليد أو العين

يستعقب أثراً مذموماً لمن اغتابه أولاً أو حب ارضاء مجالسيه أو أصحابه اذا اغتابوا أحداً لسبب من تلك الأسباب فيَعُد مشاركتهم في ذلك من صلات المودة ودواعى الوفاق والسمر الى غير ذلك من الأسباب الكثيرة وأنت تعلم هداك الله الى ما فيه الخير أن هذه الرذيلة تستدعى أن تقابل بمثلها أو ما هو أشد منها ضرراً على صاحبها . وذلك يقتضى تنافر القلوب والشجار وعدم الوئام والخير كل الخير في أضداد ذلك فانها دعامة التضامن في جلب الخير ودفع الضرر ألا ترى أن أبناء البلد الواحد اذا ائتلفوا تعاونوا على ما فيه سعادتهم واجتماع الأيدى على الأعمال أنفذ للوصول اليها وأنجز فى الحصول عليها ومما يُدْخل على كثير من العارفين هذا الخلق الذميم فى معرض الأخلاق الكريمة أن يذكره فى طريق المرحمة أو الدعاء لنفسه أو لمن اغتابه أو فى طريق الدين كأن يقول انى آسف على ثروة فلان لأنه يبذلها فى الملاهي كالمسكرات وغيرها مثلاً أو يقول ان فلاناً فعل كذا أسأل الله أن يحسن حاله أو يصرفه عما هو فيه أو اللهمَّ عافنى مما ابتلى به من كذا وكذا أو يقول انه تارك للصلاة أو الصوم أو يعاقر الخمر أو يلعب القمار مثلاً وبالجملة فكل ما يتأذى به المغتاب لو بلغه يعد غيبة ولا أظنك بعد أن عقلت حقيقتها وعرفت شيئاً من أسبابها الاَّ قائلاً بانها عامة لا يخلو منها الاَّ الكملة وقليل ما هم

واذ قد علمت ضررها وما تجلبه من الفساد فعساك أن تقول ان لها بعض فوائد وأنها قد تجوز فى تلك الأحوال ولذا نذكر لك شيئاً لتعرف منه المواضع التى تسوغ فيها وهى بالاجمال ما يستعقب أمراً محموداً كأن تثبت به حقاً لك اذا لم يكن عن ذلك مندوحة كما اذا ظلمك

شخص فقاضيته وقلت انه سبّني أو سرقني أو غصب حقي الى غير ذلك ومنها الاستفتاء كما ورد ان هند بنت عتبة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فآخذ من غير علمه فقال لها خذي ما يكفيكِ وولدك بالمعروف فذكرت شح أبي سفيان وظلمها وولدها ولم يزجرها عليه السلام لأنها مستفتية. والنصيحة كما اذا قلت لشخص اياك وصحبة فلان أو مشاركته خشية عليه من الضرر. وكما اذا طُلب شخص لتزكية شاهد فان له أن يمسك عن تزكيته ويقول لا أدري. أو استشارتك في مشاركة شخص أو زواج امرأة فان لك أن تذكر ما تعرفه من المثالب والأحسن أن تقول لا أحب أن تشاركه أو أن تتزوجها أو ليس لمثلك ذلك ولا تذكر خلال النقص التي تعرفها فيمن سئلت عنه ألا ترى أن الفقهاء قالوا في ورقة التزكية المسماة بالمستورة ان القاضي اذا بعثها لشخص يطلب تزكية الشاهد فالأحسن أن يردها غير مكتوبة اذا كان يرى أن الشاهد ليس أهلاً لأن يزكَّى وكذلك لا ضرر فيها اذا كان المغتاب متجاهراً بالفسق فانه لا يغضب من نسبته اليه فالضرر الذي يخشى من الغيبة بالنسبة له غير متحقق فان اشتهاره به عائق عن غضبه من نسبته اليه وعلى هذا اذا أراد استاذ او رئيس أن يقوّم من اخلاق شخص رأى فيه اعوجاجاً لا يعيّنه بل يقول منكم من يفعل كذا أو بعضكم يقول كذا فليقلع من فيه ذلك عنه لأن فيه من الأضرار ما هو كذا وكذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى في أحد أصحابه شيئاً من ذلك يقول ما بال قوم يعملون كذا وكذا الخ

وقد جاء الشرع الشريف ذاماً لها ناهياً عن الاتصاف بها قال تعالى

(ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال — لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا [1] ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله اخواناً — وعن جابر وأبى سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا فان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يَغفر له صاحبه — وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقال مالك بن دينار رضى الله عنه مرّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عليه السلام ما أشد بياض أسنانه . نبههم بذلك الى انه لا يذكر شئ من خَلق الله الاَّ ما فيه حسن

علاجها

علمت مما سلف أن العلاج العام لأدواء الأخلاق هو التفكر في الاضرار الدنوية والاخروية المترتبة عليه فان العاقل اذا علم ما يترتب من المضارّ على أمر هو متصف به وأن الخير في الابتعاد عنهُ يوشك أن يقلع عنه فان لم يكن دفعياً كان تدريجياً . وقد أبنَّا فيما سبق شيئاً من أضرارها الدنيوية والاخروية وهناك علاج خاص بكل خلق ردئ وهو النظر في أسبابه ودواعيه والتخلى عنها . وقد أبنا فى الكلام على هذا الخلق شيئاً من أسبابه ودواعيه فعليك باجتنابها اذ من المعلوم أن العلة

(١) المزايدة فى الثمن

تزول بزوال سببها وفقنا الله واياك الى وسائل الفلاح والنجاح

النميمة

تطلق اطلاقاً شائعاً على من ينقل لآخر قول شخص يسوءه كأن تقول له فلان يقول فيك كذا وكذا فهي على هذا قاطعة ذات البين بين ذينك الشخصين فان المنقول اليهِ ان لم يكن ممن راض نفسه وكبح جماحها حتى اتصف بفاضل الأخلاق يثور فيه الغضب على المنقول عنه فيتولد لديه الحقد عليه وحب الانتقام منه فيقابله الآخر بما يستتبعه ذلك الخلق الذى جلبته النميمة فان النفوس اذا لم تكن ملكية انقادت فيها القوة الغضبية والشهوية الى القوة الحكمية تسرع الى حب الانتقام والمقابلة بالمثل أو أكثر منه اذا أُوذيَتْ متى وجدت لذلك طريقاً وقد تطلق على ما هو أعم وهو كشف ما يكره كشفه سواء كان قولاً أو عملاً وسواء كان الكاره المنقول عنه أو اليه أو غيرهما وهى بهذا المعنى تشمل افشاء السر وقد قدمنا القول فيه . قال علماء الأخلاق انها خلق مرذول مذموم بناء على الاصل الذى روعى فيه الفرق بين المرذول والحسن (وهو ان كل ما كان الغالب فيه استتباع الخير والمنفعة في المجتمع البشرى فهو حسن . وكل ما كان الغالب فيه ضد ذلك فهو سيء مرذول) فلا تحسن الا اذا كان فيها فائدة أو دفع ضرر كما اذا رأى شخصاً يتناول مال غيره ويقول ذلك أو سمع من شخص أنه يحاول قتل آخر أو سلب ماله أو يتربص به السوء وعلم منه الاضرار والقدرة فعليه أن ينبهه اليه تنبيهاً يستيقظ به للاحتفاظ بما يراد انتهاكه من الحياة أو المال ولا يتجاوز هذا الى كثرة

المطاعن والمثالب وغيرهما مما يوغر قلب المنقول عنه

ومن أسباب هذا الخلق ودواعيه ارادة السوء بالمحكى عنه أو اظهار الحب للمحكى اليه أو الاعتضاد به على المنقول عنه أو الاسترواح بفضول الأحاديث والخوض فى الباطل واذ قد علمت ضرر النميمة بالنسبة للمنقول اليه والمنقول عنه فلا يخفى عليك ضررها بالنسبة للمتصف بها فان من يكون سبباً في المضارّ والمفاسد يعرض العاقل عن صداقته ومجالسته وقد لا يريد الخير اليه فلا تستحسن الأبصار طلعته ولا تألف القلوب عشرته واذا اشتهر بذلك ساءت سمعته وأصبح خالياً من الأودّاء والأصدقاء لا يجد من يعينه على جلب نافع أو دفع ضار وهذا ضرر بيّن تجب على العاقل مجانبته

اذا أراد المنقول اليه ألاّ يحيق به ضرر الغيبة فعليه اذا ألقيت اليه ألاّ يصدق لأول وهلة لأن النمام فاسق وقد قال تعالى (ياءيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وهذا لا يمنعه (اذا كان ما ألقاه النمام اليه مهما يتق) أن يتعرّفه ان كان حقاً أو باطلاً حتى يعد لنفسه خطة يتبعها من جرائه ولا يسلك فى هذا التعرف طريق الأخلاق الذميمة والوسائل المشينة وعليه اذا وضح له أن هذه الغيبة ليست فى المواطن التى تحسن فيها شرعاً أن ينهاه عن مثل ذلك الخلق ويبين له رذيلته وينصحه بالاقلاع عنه على قدر ما تقتضيه حاله وحال الناقل اليه وعليه أيضاً ألاّ يظن بأخيه الغائب المنقول عنه سوءًا بمجرد أقوال الناقل قبل أن يتحقق من صحة ما قيل والا يقول ما نقل اليه لأنه بذلك يكون نماماً . اللهمّ الا اذا فشا هذا الداء فيه ورأى

أن الأنجع فى علاجه اعلان شأنه

ذمت الشريعة هذا الخلق وقبحت من حال مرتكبه . قال الله تعالى فى معرض الذم — هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل [١] بعد ذلك ذنيم — والذنيم الدعى الذي لا يعلم له أب أي انه مثله فى الخسة . وقال أيضاً — ويل لكل همزة لمزة — قيل الهمزة النمام . وقال تعالى فى ذم امرأة أبى لهب حمالة الحطب — قيل هو الحديث على وجه النمّ لأنه وقود نار الفتنة كما أن الحطب وقود النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يدخل الجنة نمام — وقال في آخر قتات (وهو النمام) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاءون بالنميمة المغرقون بين الاخوان الملتمسون للبراء [٢] (أي العثرات) . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن آخر شيئاً فقال له عمر ان شئت نظرنا فى أمرك فان كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية (ياءيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وان كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وان شئت عفونا عنك . فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليها أبداً

قال الحسن من نمّ اليك نمّ عليك ذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد

---

(١) الغليظ الجافى (٢) الفراق والمراد أسبابه

أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات بغّضت أخي اليّ وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة وقال لقمان لابنه يا بنيّ أوصيك بخلال ان تمسكت بهنّ لم تزل سيداً أبسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وأمّنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقيل لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . اذا تلوت كل هذا علمت ان ذا اللسانين الذي يتردد بين اثنين يكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه قل أن يخلو من خلق النميمة فهو داخل في كل ما قلناه من تقبيح شأنها بل قد يزيد عليه ملقاً ونفاقاً ويندر أن يخلو عنه من يصادق المتعاديين قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم امعّة قالوا ما الامعة قال الذي يجرى مع كل ريح واتفق الباحثون في الأخلاق على أن ملاقى الاثنين بوجهين منافق وهذه صفة تأباها الرجولية الكاملة والدين الصحيح

الصدق

نتكلم عليه هنا باعتباره مطابقاً للاعتقاد والواقع لأنه اذا أخبر شخص آخر بما يعتقد لا نعده رذيلة وان خالف الواقع وكذلك اذا أخبره بما يخالف ضميره لا نعده فضيلة وان طابق الواقع وانما اعتبرنا فيه موافقة

الواقع زيادة عن الضمير اشارة الى أن الصفة الكمالية انما تكون على وفق القوة الحكمية التى قلنا عنها فيما سبق (انها ادراك حقائق الأشياء وخواصها وما يحسن وما يقبح من الأعمال على ما هى عليه فى الواقع بقدر الطاقة البشرية) وهذا الخلق من خواص الانسان وأحد الأركان التى عليها مدار نظام المجتمع البشرى فى جميع حركاته وسكناته فان التاجر ان لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع والشراء وكذلك الذى يشترى منه ان لم يصدّق التجار فيما يقولونه من الأثمان وما يروي اليه من الأخبار فى هذا الصدد لا يقدم على الشراء ومثل ذلك يقال فى الزراعة والصناعة بل قد يتجاوز ذلك الى الحاكم والمحكوم فان الحاكم ان لم يغلب لديه صدق المتكلم فى دعوى ظلامته لا يهتم بشكواه واذا لم يترجح لديه صدق الشهود والصكوك لا يتسنى له رد الحقوق الى أربابها ولا انصاف المظلوم من الظالم ولا اثابة المحسن ومعاقبة المسيء فتثور الأقوياء الظلمة للاعتداء وتطاول أيدى العائثين الى الفساد وكل ذلك يخل بالمقصود من المجتمع الانسانى فينصدع بناء الوحدة ويختل نظام العدالة فتصبح الامم أفراداً لا يراعى كل فرد الاَّ فائدة نفسه دون غيره فتقصر الامة عن الوصول الى الرقى والسعادة لأنها اذا لم تتعاون أبناؤها على ذلك لما بينهم من وسائل التضامن لا تنال بغية ولا تصل الى مقصود فان اجتماع قُدَر الأفراد على العمل أدعى للوصول اليه بخلاف ما لو تنافرت القلوب وعمل كل لنفسه فان ذلك يؤدى الى الانقباض عن الأعمال لأن كل ضعيف لا يأمن على نفسه وماله وما يحق له الدفاع عنه من تسلط يد القوى العائث بل قد يتعدى ضرره الى

ما فوق ذلك كالشرائع والديانات فانا اذا لم نصدق ما جاء فيها من عظيم الآداب وصادق التشريع لكنا هملا لا ندين بدين فظهر من هذا أن الصدق عليه مدار نظام المجتمع الانسانى وان الكذب مخلٌّ به هادم لاحكامه كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذى من شأنه أن يكون اعراباً عن الحقيقة فهو من هذه الجهة منحط عن درجة الانسانية الى درك الحيوانية بل هو شرٌّ من ذلك قال تعالى . ان هم الاَّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . ومن أسباب الكذب ولوع الانسان بمدح نفسه بما يتخيله جالباً للفائدة أو مدح من له به صلة مودة أو قرابة أو من يرجو منه فائدة جزاء ذلك ومنها أيضاً ادخال السرور على محدثه فيلقى اليه ما يعتقده ساراً له وهذا دأب أهل النفاق والملق والغش والمداهنة أو التملص من التقصير خشية أن ينسب اليه الاهمال أو الخيانة أو خلف الوعد الى غير هذا من الأسباب واذا استمر الانسان عليه زمناً اعتاده وصار له ملكة راسخة فتراه لا يخلو كلامه غالباً من بعض الاكاذيب ولو حاول أن يحدّث صدقاً تخيّل انه لا يجد فيه طلاوة تستهوى الاسماع وتسترق القلوب وعلى عكس ذلك من اعتاد الصدق فانه يؤثره على الكذب ولو استعقب ضرراً والانسان ابن عوائده وملازم مألوفه واذ علمت ما يترتب على الصدق من الفوائد فى المجتمع الانسانى فقد علمت مقداره من الفضيلة وأكبرت من يتصف به . اذا صدق التاجر وفرَّ للمشترين جزءاً من الزمن كانوا يضيعونه فى المساومة وجزءاً من أموالهم كان ذاهباً بغير حق لو كذب عليهم فيما يتعلق بقيمة المبيع فيقبلون عليه اقبالاً عظيماً متى علموا منه ذلك الخلق الفاضل فيتبادلون المنفعة . اذا صدق المعلم فيما يلقيه من

المعلومات ووقف عند ما يعلمه ولم يقف ما ليس له به علم وعلم المتعاملون صدقه فيما يقول فعرفوا منه معلومات حقة ووثقوا بما يقول ولم يضيعوا أزمانهم فى الأباطيل فاحسنوا سمعته وأكبروا من شأنه . اذا صدق الحاكم فى الحكم على ما تقتضيه القوانين العادلة وأنفذ أحكامها سارع المحسن الى الاكثار من احسانه وارتد المسىء عن اساءته . اذا أصبح الصدق خلقاً للانسان جنى ثمرته من الفوائد وحسن السمعة فقلّده فيه خلانه ومخالطوه من أسرته وأحبائه لا سيما الأطفال فانهم اذا نشئوا بين أسرة كريمة الأخلاق صادقة المقال فانهم يشبّون على الصدق فى القول متحلين بفاضل الأخلاق فلينظر من ليس بصادق فى جنايته على أولاده بما ورثوه عنه من الاكاذيب وسىء الأخلاق وكذلك من يكفلهم فعلى رب الاسرة أن يباعد بينها وبين الأقاصيص الباطلة والخرافات المحدثة التى تؤصل فى نفوسها المخاوف وتصديق الخرافات واعتبار الاكاذيب والاعتماد على الأوهام الكاذبة ككتاب الف ليلة وليلة وقصص الهلالية وما شاكل ذلك وينزل منزلة الكذب أو الصدق الاقرار على أحدهما بكل ما يفهم من اشارة أو سكوت . ومما يدل على حسن الصدق وقبح الكذب قوله عليه الصلاة والسلام . كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدّق وأنت له كاذب . وعن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول فى دعائه اللهمَّ طهر قلبى من الشقاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب وقال أيضاً ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل متكبر وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا

وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال عليه السلام وما أردتِ أن تعطيه قالت تمراً قال أما انكِ لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة وقال وكان متكئاً الا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وورد أيضاً انه قال تقبلوا الىَّ بست أتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هنَّ قال اذا حدّث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا أوتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال أيضاً أربع اذا كنَّ فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الامانة وحسن خُلق وعفة طعمة وهو من الأشياء الموجبة للامتهان فتعرض عنه النفوس العالية تجنباً للدناءة والخسة قال ابن السماك ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة

ومما تقدم تعرف فوائد الصدق وأنه من أدخل الأشياء فى مكارم الأخلاق وعلو همم النفوس والكذب ضد ذلك وقد تبين لك مما سبق سبب الحكم على بعض الأخلاق بالحسن وعلى بعضها الآخر بالقبح ومنه تعلم انه قد تسوغ مخالفته بما قررناه فى مواطن لما يترتب عليها من دفع الاضرار العظيمة فان كلاً من حسن الصدق وقبح الكذب ليس لذاتهما بل لما يترتب على أولهما من المنافع وأقلها اعلام المخاطب بما تعتقده واقعاً حتى يتحرى فيه من الأعمال التى تناسبه ما يتحراه وعلى ثانيهما من المضار وأقلها اعلامه بغير الواقع فيبنى معلوماته وحركاته على ذلك مع أن الأمر ليس كما قيل وعلى هذا فاذا ترتب على الكذب القيام بواجب شرعى لا يعد نقيصة كما اذا رأيت شخصاً يريد قتل آخر اختفى فى دار وسألك

عنه فانك لا تعامه به صيانة لدم محترم عن السفك وكذلك اذا تعين طريقاً للصلح بين المتخاصمين أو كان خدعة في حرب وعلى أى الأحوال لا ينبغي الافساح فيه خشية اعتياده لأنه من الأخلاق التى اذا اعتيدت عسر التوقى منها ويجمل أن يكون فى مواقع اباحته تعريضاً لا تصريحاً كما أجاب به النبي عليه السلام (رجلاً سأله ليعلم حال المسلمين فى الحرب حتى يعرّف الكفّار ذلك فيتمكنوا به من الانتصار) (ممن الرجل) فقال من ماء (يريد أنه خلق منه) ففهم السائل أنه عراقى وكقولك اذا قيل عنك شئ ورأيت أن دفع الضرر فى الانكار (ان الله ليعلم ما قلت من ذلك من شئ) فان ظاهر ما قلت أن ما نافيه وأنت تريدها موصولة وكقول ابراهيم عليه السلام لما كسّر الأصنام وسئل عن ذلك (بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) الى غير ذلك من المعاريض ودليلنا على الترخيص فيه لدفع الضرر ما روى عن أم كلثوم قالت ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شئ من الكذب الاَّ فى ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول فى الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً . وروى عن أبي كاهل قال وقع بين اثنين من أصحاب رسول الله كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت ما لك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت أهلكتُ نفسى وأصلحتُ بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو (أى

بالكذب) وبالجملة فيحسن بالانسان أن يجتنبه جهد استطاعته فانه قد يخطئ فى تقدير الضرر الذى يريد أن يدفعه بالكذب فربما كان تافهاً يحتمل فلا يحسن الكذب ولو بالمعاريض في مثل ذلك خشية أن يصير خلقاً يرتكب لادنى توهم وقوع ملمة وكثيراً ما كان الصدق سبيل النجاة فيما يتوهم انه فيه جالب الضرر ذاهب بالخير والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

النظام

هو عام فى الأشياء النظرية والعملية وهو مما لا غناء عنه فى الوسائل الصحية والأشياء المنزلية وطرق الرزق والأحوال الاجتماعية الداخلية التى تكون بين أفراد الأمة أو الخارجية التى تقصد من أمة أخرى لما لها من الارتباط فى معاملتها السليمة وغيرها . قد أبنا لك القول فى أن النظام انما هو حسن ترتيب الأشياء وتقديرها تقديراً يوصل الى الغرض المقصود ألا ترى أن الانسان اذا راعى ذلك فى مأكله ومشربه ومسكنه وأعماله الجسدية كان غذاؤه بسيطاً لذيذاً وملبسه على بساطته وعدم مراعاة البذخ أنيقاً ومشربه نظيفاً شهياً ومسكنه مع خلوه من مظاهر العظمة والصلف بهيجاً نقياً وما فيه من الفرش والرياش حسن الترتيب جميل الوضع يملأ عين الناظر حسناً وقلبه سروراً وارتياحاً هذا على قلة المبذول ومراعاة الاقتصاد . واذا رتب وسائل كسبه من زراعة وتجارة ونحوهما ذلك الترتيب يجد الكسب لديه وفيراً واطمئنان القلب عظيماً واستجمام الفكر متوفراً وعاش عيشة سعيدة هنيئة أنظر الى أهل الكد

سواء فى المسائل العقلية أو العملية تجد أن من راعى منهم حسن النظام برّز على غيره فيما تسارعوا اليه . ان الذين خصوا بالمحافظة على حقوق أمتهم وعنوا بالدفاع عن حوزتها لا يتفاضلون بكثرة عددهم أو عظم ثروة أمتهم بل فى حسن نظام الدفاع ووسائله من الأسلحة وترتيب الحركات فكم من أمة قليلة غلبت أمة كثيرة وأنزلتها من مكان العزة الى حضيض الذلة وأصبحت محكومة بعد أن كانت حاكمة . ليس ذلك الاَّ بحسن نظامها وتنسيق أعمالها . ان احكام النظام فى حركات القوى العقلية والعملية طريق الى تسنم المجد والاعتداد بالقول . اذا رزقت الأمة رجالاً ذوى أقدار عالية وأفكار ثاقبة ونظموا شئونها تنظيماً قويماً علا قدرها وسمع قولها اذا اتبعته أبناء الأمة فى واجبها بالنسبة لأطفالها وحياتها المنزلية والكسبية والاجتماعية الداخلة والخارجة عظم شأنها واتسعت أرجاؤها — ولا تحسبنه ما يريده العامـة من الملبس الفخم والمآكل المتنوعة والبُسط والمقاعد الوثيرة والمبانى الشاهقة ذوات القيم العظيمة وسكون المتعلمين واصغائهم الظاهرى مع اشتغال قلوبهم وانحصار عقولهم عن الاستفهام عما يلقى اليهم حال التدريس فان ذلك من أكبر العوائق عن وسائل الاقتصاد وعن الرقى والتمرين على الشجاعة الأدبية واتساع المعارف

الشخص العامل فى هذا الوجود يشغل الوقت فلا بد ان يُكفَى مؤنة غير عمله خشية شتات الفكر وتفكيك الأعمال فيجد من نظام منزله وحسن رونقه ونظافته واحكام ترتيب ما فيه وتنسيق أوضاعه ونظافـة مأكله ومشربه تنشيطاً على أعماله ووقتاً للراحة الحسنة التى تعينه على القيام بالعمل . ان هـذه النفوس البشرية تملّ اذا استدامت فى أعمالها

فلا بد لها من وقت تستجمع فيه قواها ذلك الوقت هو وقت الراحة فى المنازل ومراتع الاسترواح فاذا كانت تلك المواضع على أتم تنسيق وأجمل ترتيب بعثت فيها ارتياحاً يولد فى الجسم نشاطاً فيعود الى عمله مستجمع القوى ثاقب الفكر

الأمم فى حاجة الى هذا النظام أيضاً فى سائر أعمالها فان العمل اذا كان على الترتيب المحكم الذى يؤدى الى السهولة وقرب الوصول الى الغرض المقصود قلّ فيه العناء وكثر الكسب . اذا رتبت أعمال الحكومات ترتيباً جيداً روعى فيه السهولة والنظام يقوم العامل الواحد مقام الكثير فتقل المرتبات ويسهل الاقتصاد . اذا كانت الجيوش على ما قدمنا من النظام الحسن من جهة الوصول بها الى الغرض المقصود منها قامت بما نيط بها خير قيام وان قلّ عددها . اذا دخل ذلك النظام دور التعليم مراعاً فيه ما يناسب القاؤه وما يحسن لطبقات المعلمين والمتعلمين بالنسبة للغرض المقصود من ذلك التعليم جاء بما يراد منه مع قلة فى الزمن واقتصاد فى الانفاق وبالجملة فالنظام من دعائم الاصلاح الخاصة والعامة . سمعنا عن كثير من الناس أنهم لا يعبئون به لكونه من المستحدثات أو أنه من أخلاق الجهلاء الذين لم يذوقوا لذة العرفان . ان هذه النغمة ليست بالحديثة فكثيراً ما رأينا وسمعنا فى التاريخ من استقباح الحديث ما يعد مكابرة ولكن ماذا عسى ان يقال وتلك سنة الأمم تكثر المصارعة فيها بين الجاهل والعالم والحاسد والمحسود والقديم والحديث . ان الذين لا يُعنون بالنظام ليسوا من ذوى الأعمال وأرباب الجد والنشاط الذين يحافظون على عدم ضياع الأوقات بدون جدوى . ان دأب أولئك القوم

قضاء الوقت على أى حالة فبغيتهم أن ينتهى اليوم والشهر والسنة وهكذا فهمُ هؤلاء ذهاب الأزمان وتقضيها لا يحزنهم أنهم فى حاجة لانجاز ماهم معنون بانجازه

ان خلق النظام يوشك أن يكون جبلّياً لأهل البلاد التى لا تستدر فيها الخيرات الاَّ بالكد اذ هى ميادين سباق فى الأعمال والآراء أما غيرهم فلا يكون لديه هذا الخلق الاّ بالتربية والتمرين . النظام شجرة تثمر النجاح فى كل ما تقدم من الأعمال وعدم العناية بالشجر يؤدى الى فقدان الثمر . الاستهانة بالوسائل تضييع للمقاصد يجب على العاقل ألا يستهين بالنظام فان عدم العناية به اعراض عن الوصول الى ثمرات الحياة الانسانية والخصائص البشرية وذلك انحطاط الى أفق الحيوان يامعاشر المعارضين لأس التقدم وعماد النجاح ما أحوجكم لمرشد الى أخص ميزة الانسان لا سُبَّة لكم أشنع من سبتكم أنفسكم بما تقولون كبرت كلمة تخرج من أفواهكم ان تقولوا ما لا تعلمون انا نشاطركم القول فى ذم ما يسميه الجاهلون نظاماً وهو داء عقام يجب على قادة الأمم وقايتها من أضراره

يجب على الدعاة المرشدين أن يُفهموا العامة حقيقة النظام قبل الدعوة اليه حتى اذا دَعوا أُجيبت دعوتهم ولبى القوم طلبتهم

ذكر بعض الأخلاق التى تحسن فى بعض الأشخاص دون بعض

علمنا من كثير مما سبق سبب حكمنا على الخلق بالقبح أو الحسن فاذا اتخذنا ذلك مرشداً لنا فى أحكامنا ظهر لنا أن بعض الأخلاق يكون

حسناً فى بعض الاشخاص وقبيحاً فى الآخر بالنسبة لما يقصد من ذلك الشخص ولنذكر نموذجاً لهذا فنقول علمنا مما تقدم فى خلق الحياء أن الحد الوسط منه فضيلة وأن الانحطاط فيه رذيلة ولكنا نرى أن ذلك خاص بالرجال فان الأعمال الخارجية منوطة بهم والافراط فى هذا الخلق معطل لهم عن الفضائل قاعد بهم عن الوصول الى عظيم المنافع التى تنبغى المجاهرة فيها بالقول والعمل وهذا بخلاف النساء فانهنّ لو أفرطنَ فيه كان أصون للأعراض وأبعد عن الابتذال ولا يعوقهن عن ترتيب المعيشة المنزلية وحسن القيام بما يجب لأطفالهنّ من النظافة والعناية بما لهم من المأكل والمشرب وغيرهما بل ربما كان داعية ائتلاف رجالهم اياهم لما يرونه من محاسن هذا الخلق وكذلك الزينة فان افراط الرجال فيها مجلبة للرفاهية ونعومة الأظفار وهو لا يحسن فى الذكران المنوط بهم الكد والتعب واحتمال المكاره حباً في الفضيلة واستجلاباً للمنافع ودفع الاضرار بخلاف النساء فان التأنق فيها يظهرهنّ لدى الأزواج بمظهر الجمال ومن ثم أباحت الشريعة لهنّ لبس الحرير والتحلى بالذهب وغيره من نفائس الأشياء. نعومة البدن وعدم احتمال المشاق وحسن المنظر وزائد اللين كل هذه من أنواع المحاسن في الزوجات مرغبة للأزواج فيهنّ قال عنترة

تُمسى وتصبح فوق ظهر حشيّة ... وأبيت فوق سَراة أدهم ملجَم

قد رأينا خلق حب الكرامة يستتبع الفضيلة فى الأطفال فاذا فرح الطفل من مربيه بما يبديه له من الاعجاب والسرور والاكرام لكونه فعل أمراً ممدوحاً أسرع الى الاكثار من ذلك كى ينال منه ما يحبه من كرامة نفسه فيتدرج الى فعله ويمرن عليه حتى يصير له خلقاً وسجية

ولكنا نجده فى غيرهم على خلاف ذلك فان العاقل لا يجدر به أن يتصف بالفضيلة لاجل أن ينال ما يحب من التجلة والاعظام بل يحسن به أن يتصف بها لكونها كمالاً فانه اذا كان الباعث عليها حب الكرامة أعرض عنها اذا انتفى ذلك وليس هذا من أخلاق الكملة العاملين نعم ان الثناء على صاحب الفضيلة يبعث فيه الهمة والنشاط الى تكرارها والاتصاف بامثالها ولكن فعله ذلك لا يكون ناشئاً عن حبه اعظام الناس واكباره لأجله وهذا لا يكون الاَّ للمهذبين ونحن الآن بين قوم نريد أن يكونوا على ما يحسن بعض الحسن فنعد ذلك فضيلة فى الصغير والكبير حتى يمرن عليه كل منهما فاذا رقينا بتلك المعارج الى ذروة أرباب الأخلاق الفاضلة درجنا في مثل هذا المبحث على ما درج عليه علماء الأخلاق وقلنا ان حب الكرامة خلق حسن فى الصغير دون الكبير على ضرب من التأويل

من الأخلاق التى تحسن فى الرجال دون النساء (خلق الكرم فى غير المواطن الخيرية العامة) كاقراء الضيف والبذل للمحتاج فان هذا لا يحسن فيهنَّ فقد يكون وسيلة لطمع ذوى الفسق والدعارة فان المرأة اذا اوت الضيف وأكرمته وبذلت للرجل المحتاج حاجته طرَّقت له سبيل الاقبال عليها والطمع فى محبتها وقد يتخيل أن ذلك لرغبة فيه فيتدرج لاقبالها عليه والفاسقون يتخيلون أضيق الطرق وأحرجها فى الوصول الى مشتهياتهم لاحباً مطروقاً لا يتكلف فيه سالكه شيئاً من العناء

(ومنها خلق الزهد) فانه يحسن بالعلماء والعباد القائمين بالوعظ والحث على عدم الاعتداد بادخار الأموال وكثرة المقتنيات والزينة رجاء أن يخففوا من شدة وطأة الظالمين والأغنياء المقترين على أنفسهم

والبخلاء على غيرهم ممن ينبغى لهم مواساتهم فان الواعظ اذا كان مصداقاً لما يقول نفذ الى صميم القلوب قوله ولا يحسن ذلك بالنسبة للامراء والعظماء من الملوك فان ذلك الخلق يذهب بمهابة الملك وشارات الامارة ومعلوم أن الملوك اذا لم تكن خزائنهم مفعمة بالأموال مكثرين من المقتنيات ولديهم مقدار عظيم من الأسلحة والعدد لا تتيسر لهم مناجزة أعدائهم من الحكومات الأخرى فتصبح الحكومات الخالية من المال والعدد طعمة لغيرها ولكن هذا لا يكون الاَّ في الملوك المطلقين — المال من أعظم القوات التى تساعد على استقلال الأمم واتساع ارجائها وتعميم طرق الاصلاح والتوصيل بين بُلدانها فتزداد بذلك قوةً وعظَماً اذ هى قادرة على سهولة حشد جيوشها بتلك الطرق فى زمن يسير وعلى تنظيم جبايتها والقوة كل القوة فى الرجال والأموال ما داما على حد النظام والاحكام

(ومنها مجازاة المادح) — هذا الخلق كاد يعفو أثره الآن فى الممالك الغربية فان الأموال أموال الأمة ولا شأن للملوك فيها وأموالهم الخاصة بهم لا يغدقون بها على المادحين فقد رسخ فى أذهان أبناء تلك الامم وضيعها وعظيمها عدم العناية بقول المادحين لعدهم ذلك فضولاً وملقاً وان الاجدر بأولئك المدّاح أن يسلكوا فى الكسب طريقاً مشروعاً . وهذا الخلق حسن بالنسبة للعظماء والامراء الذين لهم غناء في الأمة فان اثابتهم مادحهم المدح الحق واهتزازهم لذلك يولد فيهم حب الاستقامة والاستكثار من الأعمال الجليلة توقعاً لحسن الأحدوثة . وتتابع المجازاة عليها يؤدى الى الاكثار منها فتكون بعده أثراً خالداً يحفظ له لسان صدق على ما أداه

من المنافع لقومه ويغرى من خلفه باتباع سنته والتفوق عليه فيها على شريطة أن يكون الجزاء معتدلاً والثناء حقاً . (هذا غاية ما يمكن ان يلتمس لحسنه) واذا لم يكن كذلك كان من الأقوال الضارة فان الظالمين الباطشين من العظماء أشد ميلاً الى الثناء وحسن الأحدوثة ليستروا بذلك ما قبح من ظلمهم وما أفسد الامم من استبدادهم فاثابة أمثال هؤلاء مادحيهم ترويجاً للزور وادحاضاً للحق بالباطل واغراء لمن بعدهم على اتيان القبيح من الأعمال على أن الكامل في الفضيلة ربما آثر الخفاء على الظهور والاستكانة على العظمة ورأى انه لم يُجد حكماً ولم يجلب نفعاً استصغاراً لما حصل منه وطمعاً في أن يكون على أرقى من ذلك فلا يرى نفسه أهلاً لما يقال فيه من المدائح فيحمله ذلك على عدم المجازاة أنظر الى ما حدث بين جرير وعمر بن عبد العزيز رحمه الله حين جاءه وأنشده كلمته التى يقول فيها

وكم من ضرير أمير المؤمنين لدى أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت ألسنة الشهباء ما ملكت يمينه فحناه الجهد والكبر

وهذا الخلق لا يحسن من غير أولئك فان الأشخاص الذين لم يأتوا بجليل الأعمال لا تحسن مجازاة مادحيهم لأن في ذلك اغراء على الثناء الكاذب فيكون ملقاً ومدعاة لرواج الاباطيل والاكاذيب فالأجدر بالباذل لأولئك أن يبذله لمن يستحقه من أرباب الحاجة أو المشروعات الخيرية النافعة

طريق معرفة الانسان عيوب نفسه

اذا اهتدى الانسان الى الذميم من أخلاقه وعالج نفسه على ما أوضحناه سالفاً آخذاً في التخلى عنها شيئاً فشيئاً فيضعف فيه ذلك الخلق المرذول وعلى نسبة ضعفه ينمو فيه خلق الفضيلة المضاد له فعلى هذا علاج الشخص نفسه من الخلق الذميم يتوقف على معرفته وعلى أخذه نفسه بالتخلى عنه وليس كل شخص قادراً على تلك المعرفة وعلى حمله نفسه على الابتعاد عما لها من الأخلاق فان كل واحد مولع بحب ذاته فلا يفقه لها عيباً ولا يعرف منها نقصاً اذ هى أحب شئ لديه وأنفس عنده من كل ما عداها كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقال أيضاً

خليلك أنت لا من قلت خلى وان كثر التجمل والاخاء

ألا ترى أنك تستحسن من نفسك ومن ابنك ما تستقذره من أبناء غيرك ومن سواك وعلى هذا فاذا أراد شخص أن يتعرف الفاسد من أخلاقه أن يتعامه من أصدقائه العقلاء البصراء بذام الأخلاق ومحاسنها فاذا أعاموه شيئاً منها جد في علاجه حتى يخلص منه غير أن هذا الأمر قليل فان أكثر الأخلاء والأصدقاء لا يشافهون صديقهم بذلك ولو طلبه اليهم خصوصاً الأمراء والعظماء لما وقر في النفوس من أن كل شخص يرتاح الى الثناء عليه ونسبة المحاسن له وأنه اذا قوبل بغير ذلك ثارت فيه قوة الغضب فسب وخاصم فلا يفوهون له بالمثالب الآ اذا

كانوا على جانب من رصانة العقل وصادق التجربة آمنين من وقوع الضرر من جراء ذلك والاَّ أطروه مدحاً وأشبعوه ثناءً حباًّ في الملق ومداهنة في الصداقة واستجلاباً للخير أو دراً للضير وعلى ذلك فهذه الطريقة غير متوفرة في كثير من الأصدقاء والعشراء واذن فيحسن أن يتعرفه من أقوال أعدائه وألسنة معارضيه فاذا فطن بذلك الى خلق ذميم أخذ نفسه بالرجوع عنه والانكباب على ضده ولا يضرّنه في هذا ما عساه أن يكون من كذبهم وفريتهم فيما ينسبونه اليه فانه لا ضرر في تصديقهم فيما قالوه لأنه ان كان باطلاً وعمل على مقتضاه نمى في نفسه خلق الفضيلة فتأصل لديه وأصبح ملكة بعد ان كان حالاً وهناك طريق آخر لمعرفة النقيصة وذلك بأن يعاشر الناس بزائد اليقظة والتنبه الى ما يذمونه كسرعة الغضب أو الشح أو الكذب فيتفقد في نفسه تلك الأشياء المذمومة تفقد اليقظ فان ظهر له شيء منها جدّ في الابتعاد عنه (وهذا يحسن بالجاهل الذى لا يعرف حسن الأخلاق من قبيحها) أو ينظر الى خلانه وأوداه فان الغالب فى أولئك أن تكون أخلاقهم متشابهة وأحسن شيء فى هذا الباب أن يتأمل نتائج أخلاقه فان وجد من عمله استرقاق قلب وفوائد ترتبت على صنعه علم أن ذلك نتيجة ذلك الخلق الفاضل وان وجد منه تنافر القلوب والاضرار علم أن ذلك ناشيء من الخلق الذى جلبه وانه خلق نقيصة فيعول على اجتنابه والاتصاف بضده

كان عمر رضى الله عنه على علو نفسه واتصافه بفاضل الأخلاق يتعرّف أحوال نفسه من أصدقائه الذين لا يخشون في مقال الحق لومة لائم فقد ورد أنه كان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فهل ترى علىّ شيئاً من آثار النفاق وكان رضى الله عنه يقول رحم الله امرءاً أهدى الىّ عيوبى سئل داود الطائى عن سبب اعتزاله الناس فقال ماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى

تأثير البيئة والمجتمعات والدين فى الأخلاق

يولد الانسان خالى الفكر من تصوّر الحسن والقبيح لا يدرك الاّ ما توصله الى عقله حواسه الخمس فيألم مما يؤلمه منه كالضرب والحرارة والبرودة ويسكن الى ما يلذه كالمأكل والمشرب ففكره وقتئذٍ بمنزلة مزرعة تخصب ما يلقى فيها من البذر فان ألقى فيها بذر حسن من صادق التصورات وفاضل الأخلاق وتعهدته التربية المنزلية بما يناسبه نمى وأثمر ثمراً جميلاً يفيده ويفيد المجتمع صلاحاً وفلاحاً واذا ألقى فيه بذر خبيث من التصورات السيئة الكاذبة الضارة أنتج شراً وفساداً لنفسه وللمجتمع وليس ذلك قاصراً على التربية المنزلية بل قد يكون ذلك التأثير للبيئة والمعاشرين فان للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها ألا ترى البلاد الزائدة الخصوبة اذا قلّت فيها المزاحمة وجد أهلها من ذلك ما يكفيهم مؤونة الحياة على قليل أتعابهم فيركنون الى الراحة والبطالة قانعين بما سهل لديهم من وسائل المعيشة فيعتادون الكسل ويقل فيهم خلق المثابرة على العمل ويؤثرون الراحة على المشقة ويقرب من هؤلاء من وكلوا أمور نفقاتهم الى الخدم وكلفوهم القيام باستدرار الأرزاق أنظر الى أهل السودان لا تجد في أخلاقهم زمن اكثارهم من الأرقاء والخدم المداومة على الأعمال واحتمال المشاق فى سبيل الرزق والى أهل الحجاز

فى فرضهم على عبيدهم العمل واعطائهم الأجر فان ذلك حبّبَ اليهم الراحة وعدم الادمان على الأعمال الجالبة لخيرات الأرزاق مع ما ساعد على هذا من الحرارة فى بلاد السودان وما شاكلها فان شدتها تورث في الانسان خموداً فى القوة الفكرية والبدنيـة حتى لا يستطيع المثابرة على كثرة استعمالهما اللهمّ الاّ اذا زاحم أولئك أقوام ذووا غيرة وعمل فان مخالطتهم اياهم تولّد فيهم غيرةً ونشاطاً لما جبلت عليه النفوس من حب استباق المنافع والخيرات ولا نذهب بك بعيداً بل نلفتك الى نفسك وقومك قبل وفود ابناء الامم الاخرى الى ديارهم تجد أنهم كانوا لا يثابرون على الأعمال ولا يتسابقون فى الوصول الى ما يجلب الثراء فكنت ترى المزارع لا يشتغل الاّ أياماً قليلة فى تهيئة أرضه للزرع والقاء البذر ثم يتركه وشأنه بدون سماد وتنقية من الحشائش الغريبة حتى اذا جاء وقت حصاده نقله الى البيدر واشتغل بدراسته وتذريته وقضى الكثير من أوقاته فى ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسامرة قانعاً بما يكفيه من تلك الارزاق التى حصل عليها بقليل العمل وكذلك التاجر لا يسعى ويكد فى جلب عروض تجارته من المصانع التى بالاماكن البعيدة ولو كانت رخيصة الأثمان ولا يفكر فى اتخاذ طريق للوصول الى الجيد الربيح منها مفضلاً الاكتفاء بالقليل مع الراحة من عناء الأسفار وشتات الأفكار عن الكثير المستصحب لذلك ولكن لما زاحمه الغرباء فى طريق الكسب وموارد الرزق ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول الى مرافق الحياة أخذ فى الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى وان كان لا يزال فى ذلك قليل الكد قصير الفكر لو نسبناه لمزاحمه . فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة

تؤدى الى تغيير فى الخلق فلو خالطنا أقل منا كداً وأحط فكراً لما نمى فينا خلق المزاحمة والمثابرة غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك المخالطة أظهرت فينا حب التأنق فى المآكل والمشارب والقصور والرياش فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل نبذل ما زاد من الكسب والربح على تشييد تلك القصور الباذخة والملابس المتنوعة والألوان المختلفة ويا ليتنا وقفنا عند ذلك بل تجاوزناه الى الاكثار من معاقرة الخمور والمباراة فى ميادين القمار والمضاربات المجتاحة للثروة فذهبت أموالنا وضاعت أرباحنا . خالطنا قوم أشد منا معرفة بطرق الثراء والاقتصادوأقدر تفنناً فى وسائلهما ذووا جد ونشاط رسخ فيهم خلق المثابرة فأكسبونا منه قليلاً وأقبلنا اقبال الهيم على ما لديهم من الزخارف ومن وسائل الثروة التى نحن فيها عيال عليهم كالمضاربة وما شاكلها فربحنا قليلاً من الأولى وخسرنا أضعاف ذلك من الثانية ولو كان لدينا سياج من العقل الراجح والرأى الركين لما كسبنا الاّ ما به صلاحنا وفلاحنا

اذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها اليه من حلم وأناة وشجاعة وقوة ارادة وغير ذلك من الفضائل فاذا عاش كبيراً بين قوم أخيار بررة لا يعرفون النقيصة ولا يألفون سوى الفضيلة أصبح كاملاً فاضلاً خيّراً لنفسه خيّراً لاسرته خيّراً لاصدقائه وقومه فانه لا يجد لديهم مدحاً الاّ للفضيلة ولا ذماً الاّ للرذيلة فيعتاد ذلك وتتأصل فيه الفضائل ويجانب الرذائل وعلى العكس من ذلك التربية الفاسدة ومعاشرة الاشرار ذوى الدعارة والفجور فانه بمصاحبتهم لا يبتعد عن الرذيلة المنطوية فى أقوالهم وأفعالهم ومدائحهم وغالب أحاديثهم فيمرَن عليها والمرء اذا اعتاد

شيئاً لا تردعه مذامه ولا تُنَفّر قلبه قبائحه بل ربما تخيلها محاسن . أليس الشرف الانسانى يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة فتراه يتباعد عنها استحياء وخشية من سوء الأحدوثة فاذا وجد قرناءه لا يتحاشونها سهل عليه أن يغشاها مرة وأخرى فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته وثلماً لشرفه وهذا ما يحملنا على القول بأن الشرف الانساني كالزجاج اذا كسر تعسر جبره

المرء يتخلق بخلق أحبابه وأصدقائه ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل فان المفضول مولع بالتخلق باخلاق الفاضل وهـذا أمر سائر في عامة الناس كما نص عليه العلامة ابن خلدون ولذا ورد ما معناه المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعلى هذا فاذا رأيت قوماً تنتحل أخلاق وعادات أمة اخرى ويألفون مألوفاتها فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى اذا حاربوها لا يقدمون على ذلك الاّ وقلوبهم بين جناحى طائر لما ملأها من تجلة تلك الأمة واكبارها فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين يؤيد هذا ما ورد (اذا شابه الزى الزى فقد شابه القلب القلب) . فاقتفى أثره فيما يستقبحه ويستحسنه ومن ثم حظر بعض الدول القوية على الجند تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

هذا وتأثير الدين الشريف في الاخلاق أمر ظاهر لا يسع أحد انكاره (الدين له سلطان على القلوب وتأثير في النفوس) فان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ووعدهم (اذا ائتمروا بأوامره واجتنبوا نواهيه) بالخير العميم والفضل الجزيل وأوعدهم

اذا خالفوا ذلك بالسخط المريع والعذاب الأليم

وهو العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الاّ هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين . وهو القادر على تحقيق ما وعد به المتقين وأوعد به غيرهم وهو القاهر فوق عباده ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فمن آمن بما جاءت به الرسل وجد على نفسه رقيباً فى خلواته يثيبه اذا أطاعه ويعاقبه اذا عصاه فيقبل على المأمورات ووجوه الطاعات سراً وجهراً ويعرض عن المنهيات فى وحدته ومجتمعاته

القوانين الوضعية على فرض اصابتها الغرض المقصود فيما يناسب سعادة المجتمع لا تزع الناس عن الأخلاق الذميمة والافعال الضارة الا ظاهراً لأن ما ترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق الا اذا علم من صاحب ذلك الخلق تلك الفعال بخلاف ما كان خفياً فى الانفراد لا يطلع عليه أحد أو تواطأ المطلعون على اخفائه . على أنه كثيراً ما يحصل الاغضاء عن العقوبة بوسائل المحبة وما جرى مجراها وعلى فرض كل ذلك فمن أين لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى

علمت مما سبق فى مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الطاهرة فان آى الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة أتت فى بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ولذلك قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع فلا أدبه الله وليس لدينا شئ أحسن فى هذا الباب من أن نحيلك على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه

صلى الله عليه وسلم فانك اذا تدبرت ما جاء فيهما رأيت العجب العجاب وقلت ليس فى الامكان أبدع مما كان . اذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر وكذلك اذا عقلت تاريخ كل أمة ذات دين سماوى قبل الدين وبعده لم تبقَ لديك مرية فى شئ من ذلك

قلنا وجيزاً ولو سقنا الجزئيات لطال بنا الكلام

التربيـــة

نريد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجاً حتى نصل بالمربَّى الى حد الكمال فيهما

الطفل يولد خالياً من مدركات النفس الناطقة التى تكلمنا عليها فى الفلسفة النظرية ليس لديه الاَّ المدركات الحسية التى تناسب القوة الشهوية والغضبية فهو فى هذه الحال بمنزلة الحيوان لا يحكم الاحكام الكلية على الأشياء بالقبح أو الحسن فلا يهم الاَّ لمحسوس يتخيل فيه فائدة ولا ينفر الا منهُ اذا تخيل فيه ضرراً فقوّتهُ العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح فهو أمانة فى يد أبويه أو من وكلت اليه تربيته (فعليه أن يحفظهُ من موارد التلف والانبـاق) فان نقش فيها المعلومات الحقة المفيـدة وطبعهُ على الأخلاق الفاضلة وجنّبهُ الأباطيل والرذائل وعوّده خير الأعمال أثابهُ الله على حفظ تلك الأمانة والعمل الصالح الذى كان به كمال ذلك الطفل ذلك الكمال الذى أفاده وأفاد ذلك المربّى وأسرته ومواطنيه بل أمته وبنى الانسان والا كان ضاراً

لنفسهِ بعدوله عن حفظ ما ائتمن عليهِ ضاراً لتلك الأمانة ولأسرتها ولأمتها

يرشد الى هذا قوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة الاصلية فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمرء كما هو مسئول عن اصلاح نفسه وافسادها مسئول عن اصلاح وافساد نفس من وكلت اليه تربيته

ينبغي للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل فى نظافة جسمه وملبسه ومأكله فلا تتركه لحظة غير نظيف الاطراف وسائر الجسم فان ذلك مجلبة للضرر

الطفل لا يصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فمه . أسرع شيء الى اتلاف الاعين قذارتها ورماصها ووساخة مُلامِسها . ان وسخ الثياب والجسم يوجب تراكم الذباب الناقل لجراثيم الامراض وتراكم الاوساخ يضعف التنفس الجلدى وكل هذا من وسائل ضعف الصحة يجب عليها ألاّ تدعهُ فى الأَماكن القذرة ولا تكثر له من الرضاع بل تنظمه تنظيماً يطابق الصحة ولا تهمل فى ذلك خشية من عويله وصياحه فانهُ اذا رأى ذلك مجلباً لما يرومه أكثر منهُ كما قال

والنفس كالطفل ان تهمله شبَّ على حب الرضاع وان تفطمهُ ينفطم

على أن كثرة الصراخ أيام الطفولية الاولى أجش للصوت وأوصل الى اصلاح طرق التنفس وقد عرفت ذلك العرب قديماً وذكر فى نصائحها والاَّ تنيمه حزيناً باكياً . فقد ورد عن القدماء من الأمة العربية (أن النوّكى تنيم ولدها باكياً والحاذقة تغنى له حتى ينقلب أسفه سروراً فلا تنيمه الا على هذه الحالة) . وليس ذلك بمقصود فى مبحثنا هذا لأنهُ من مباحث الأطباء فلا نكثر الخوض فيما لسنا فيهِ على قدم

ولنذهب بك الى القول فى طريق انماء القوة الحكمية والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيه وهو خلو من هذا ومن أضداده فانه أسهل وأنسب بطريقنا وأنفذ للوصول الى الكمال المطلوب اذ القاء بذر فى مغرس خال لا يحوج الى عناء كالعناء الذي يكون عن القائه فى أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر فانه يستدعى قبل الالقاء تعباً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن انبات البذر نباتاً طيباً يثمر ثمراً حسناً

يجب أن يعوَّد الطفل الصدق في كل أقواله ويسهّل ذلك نشأته بين أُسرة لاتقول الا حقاً فلا يرغّب ترغيباً كاذباً ممن هو بينهم لأنهم بذلك يطرقونه الى الكذب واذا درج عليه مرة درج اخرى وهكذا حتى يكون خلقاً راسخاً يصعب علاجه ومعاشرة الأطفال الذين ربوا على الفضيلة من أولياء أمورهم الذين عنوا بذلك والاحسان اليه اذا قال صدقاً وترك معاقبته اذا أجرم وسئل عما ارتكب فقال حقاً وأن ينُهى عن الكذب ويؤمر بالصدق في كل أقواله ويكافأ على الأول بما يعده حسناً ويقبل به على مداومة ذلك . ترك النميمة لكبير الاسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته ويُعالج فى ذلك بما عولج به في خلق الصدق . وأن يعود الحنو والعطف على من معه والغضب فى موضعه بأن يستحسن منه ما هو حسن ويكافأ عليه ويُستقبح منه ما هو قبيح بالنصح واظهار الاستياء منه . وكذلك يجب أن يُربَّى فيه خلق المثابرة على العمل بحمله على مزوالة ما يتعلق به من غسل الوجه والأطراف وتنظيف الملابس والقيام ببعض الأشياء المنزلية متى استطاع الى ذلك سبيلاً .

وايقافه على الحسن من أعماله واظهار السرور منه والفاسد وارشاده الى احسانه واظهار الاستياء منه متبعاً فى ذلك كله ما هو أنجع وأنفع فى وصوله الى درجة الكمال فان رأى أن النصح كاف فى الردع والزجر فلا يعدل عنه الى العقوبة لأنها تولد فى القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة فى المقال والأفعال . يجب عليه ألاَّ يدعه يُفرط فى الأكل خصوصاً ما لا يناسب صحته ونماءه من الأغذية العسرة الهضم وأن يفهمه أن كثرة المآكل جالبة للامراض مدعاة للكسل وعدم النشاط . وعليه أيضاً أن ينمى فيه خلق الاقتصاد فيأمره بادخار شئ من النقود التى تُعطى له وكلما رآه مقتصداً نمّى فيه ذلك بزيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه واذا رآه مسرفاً متلفاً قلل من عطائه أو أمسك وأظهر له الاستياء الى غير ذلك من الأشياء التى تبغّض اليه الاسراف وتحبّب اليه الاقتصاد ويجب ألاَّ يحدّث بالاحاديث المفزعة التى تملأ القلب مخافة كأقاصيص العفاريت وما شاكلها بل يعوّد الشجاعة والاقدام المعتدلين وذلك بالامساك عن ذكر المخوّفات وحمله على الذهاب الى بعض قاعات المنزل منفرداً وقضاء حاجته كذلك ما دام فى أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق (ولذا رأينا النشء فى البدو أكثر شجاعة وأعظم اقداماً عن نشء الحضر) . ويجب أن يقضى وقتاً فى الرياضة البدنية تقوية لأعصابه وجسمه واعانة له على الوصول الى المعلومات فان شغل معظم الوقت بالتعليم يذهب به الى السآمة والملل . يجب أن يُعلّم من المعلومات الحقة شيئاً فشيئاً على المقدار الذى يصل اليه عقله كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه ولا يلقى اليه شئ من

المعلومات الباطلة والأقاصيص الكاذبة فان ذلك مجلبة فساد الأخلاق وباطل الآمال فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الاقاصيص والروايات المملوءة بالاباطيل فانها تؤصل فيه الامانى الكاذبة علاوة عما تجلبه من الخوف والكذب واتباع هوى النفس . ويجب حثه على التمسك بأذيال تقوى الله فيعوّد القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته حتى اذا جاء طور التكليف وجده مألوفاً . الطفل فى بدء أمره لا يصعب على مربيه تهذيبه وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيماً يتعهد أحواله النفسية والجسمية . الطفل قابل لما يودع فى نفسه من حسن أو قبيح ألا يرى انه يثبت على دين كافله ومربيه

أخلاق مربيه تتسرب اليه من حيث لا يشعر فانه يراه أعظم منه لكونه قائماً بشأنه صاحب أمره ونهيه فيقلده تقليد المفضول الفاضل ولذا ترى الأبناء يتشبهون بآبائهم فى حركاتهم وسكناتهم فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق والتمسك بالتقوي جهد الاستطاعة ومن ثم حظرت الشريعة التعلم من استاذ فاسق

اذا فقهت ذلك علمت أن المربيات لابنائنا سبب فى جهالاتهم وفساد أخلاقهم وسقامة أجسامهم فيجب أن تكون الأمهات على جانب عظيم من العفة والديانة والتقوى عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التى قدمناها وبعض المعلومات الحقة التى يناسب تعليمها الأطفال حتى تحسن لدينا تربية أبنائنا

ما أكثر جرم الأمهات الجاهلات على أبنائهنّ فى التربية العقلية والجسمية فكم من جواهر نفوس ذهبت نفاستها وتأصل فيها الظلام بعد

صلاحها للانارة ودنست بعد نقاءتها بباطل المعلومات وكاذب الأقاويل وكم من صحة بدلت سقماً استعقب فنـاء بجهلهنّ طروء الأمراض القتالة فلا تفطن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحكم الداء ولا يجدى الدواء أنظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفتريا) فان جهل الأمهات اياه أودى بالأولاد (وهم رياحيننا صغاراً ورجال مستقبل بلادنا كباراً) فأصبحوا رهائن القبور ومضامين اللحود

يجب أن تتعلم الأم نظام منزلها وتربية أولادها وهى رهينة خدرها أليفة عفافها فانّا لا نطلب منها شيئاً فوق القيام بذلك. وتكليفها بأن تكون كالرجل فى كل أعماله شطط لو تعلمون. المرأة أعمالها كثيرة فان القيام بالنظامات المنزلية على تنوعها وبتربية الأبناء على النحو الذى أسلفناه مع ما هى عليه من طروء أمراض الحمل والنفاس لا يدع لها الاّ وقتاً يسيراً للراحة فيا حبذا لو وصلنا بها الى هذه الغاية

على الرجل القيام بما هو خارج المنزل فيكفى زوجته همه وعليها ما هو داخله فتكفيه مؤنته (قسمة عادلة وحكم حسن) اختلف على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه وفاطمة رضى الله عنهـا فى ذلك فناط رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بقضاء ما هو خارج منزله وفاطمة بما هو داخله. ان كل حكم يأتى على خلاف ذلك ليس منشؤه الاّ ما استهوى العقول من رفعة قوم واتساع سلطان ملكهم فنسبوا ذلك الى كل ما لديهم من الأخلاق والعادات ولم يفطنوا الى أن فى بعضها قبحاً يألم منه القوم ألمنا من بعض ما لدينا من العادات على فضلها ومناسبتها للأحوال العمرانية وشتان ما بين الألمين الرقى يجلبه الاتحاد والتضامن فى المنافع العمومية

العائدة على الافراد بمنافعهم الخاصة . تجلبه الثروة والمثابرة على الأعمال العظيمة. يجلبه التنقير والبحث وراء ما يفيد اختراعه قوةً ومالاً . يرقى بالأمة مالاً وقوةً اكبار شأن من أفاد أمته واحتقار من كان على عكس ذلك فان هذا يبعث المحسن على الاكثار من احسانه والمسيء على الاعراض عن اساءته لا كشف الحجاب واطراح النقاب وليت شعرى هل شاهد القائلون بخلاف ذلك ما ترتب على تبرج النساء فى تلك البلاد الراقية من المفاسد وهل تفكروا قليلاً ونظروا فى ذلك حتى يصلوا الى الحق الذى لا مرية فيه

لو تم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا الى ما قلنا فقام الرجال بما وكل اليهم من الأعمال الخارجية حق القيام وثابروا على العظيم النافع منها وتخلقوا بفاضل الأخلاق وتضامنوا فى المنافع العامة وولجوا اليها من طريقها الممكن ولبسوا لكل حال لبوساً فى ذلك السبيل وقام النساء بقسطهم الذى بيناه لتوقعنا خيراً وتوسمنا للأمة رقياً وفلاحاً فعلينا أن نلحّ فى الوصول الى هذا الطريق القويم ولا يقنطنا منه تباين الأفكار واختلاف الآراء وصعوبة المسلك مع تقاعد الهمم متمسكين بشريعة القادر الرحيم . (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد)

السعادة

قال المتقدمون من الحكماء مثل فيثاغورس وأبقراط وأفلاطون ان السعادة تكون باعتدال القوى النفسية الثلاث وهى الحكمة والشجاعة والعفة فاذا بلغت النفس حد الاعتدال فيها كانت سعيدة وان

تألم البـدن أو ذهب بعضه الا اذا أدّى ذلك الى تطرّق خلل فى تلك الفضائل فعلى هذا يكون الكامل فى تلك القوى سعيداً وان كان مريضاً أو مبتور الأيدى أو الأرجل الا اذا عرض له ما يقتضى فساد العقل أو رداءة الذهن ونحوهما مما يُلحق بالنفس مضرّة فى خاص أوصافها وذلك لأنهم عنَوا بالسعادة ما كان أبدياً باقياً لا فانياً زائلاً وهم القائلون بالميعـاد الروحى الذى تكلمنا عليه في الفلسفة النظرية وهم الذين يقولون ان البدن عائق لها بظلمته الحيوانية الشهوية والغضبية عن وصولها الى معلوماتهـا الحقة التى هى معشوقتها فما دامت فى هذه الظلمات لا تحصل على لذاتها الباقية وحياتها الراضية

وقد رأى أرسطو ومتابعوه أن فعل النفس الخيرات ووصولها للكمالات لا يكون الا بواسطة مادتها التى هى البدن فلا بد من اعتبار سعادته في سعادتها . ان الانسان مكوّن من شيئين أحدهمـا النفس الناطقة وثانيهما الجسم فلا تتم له السعادة الانسانية الاَّ باستيفاء كمال ذينك الشيئين وقال في بيان ذلك ان السعادة الانسانية يجب ان تكون حال الحياة وبعد الممات وأنها ليست أمراً تخييلياً ألا يرى أن السقيم يتخيل أن السعادة كل السعادة في الصحة وأن الفقير يراها في الثراء والمال والعاشق يراها في الوصول الى معشوقه بل يراهـا السكير في الوصول الى السكر والزانى في الوصول الى غرضه الى غير ذلك من كل ما الانسان خلو منه وشاقه الوصول اليهِ سواء كان فضيلة أو نقيصة فاذن لا بد من تحديدها تحديداً حقيقياً خالياً من التخيلات وعلى هذا فالسعادة تكون باستكمال القوة الحكمية على حد الاعتدال وقوتى العفة والشجاعة كذلك واستكمال

البدن الصفات الكمالية كالصحة وغيرها من الأشياء الجسمية التى لها دخل في قوام الجسم ونمائه من الغذاء والشراب واللباس والمسكن وغير ذلك على الحد الوسط الذى تسنه القوة الحكمية بمعنى أنه يكون زيادة عن الخلو من الأمراض والأسقام مقسطاً خصائصه على وفق ما ترسمه القوة الحكمية. وتختلف مراتب السعادة قوة وضعفاً تبع اختلاف سعادتى النفس والبدن من حيث الاعتدال فى كل خصائصهما أو عدمه أو الاتصاف ببعضها دون البعض الآخر فالذى توفرت فيه القوة الحكمية والشجاعة والعفة على الحد المرغوب فيه أكثر سعادة ممن توفرت فيه القوتان الاولى والثانية أو الاولى والثالثة أو الذى لم تبلغ فيه القوى الثلاثة حد الاعتدال كل هذا منضم الى استكمال البدن خصائصه الكمالية أما اذا لم يكن كذلك بأن توفرت لديه القوى الثلاث بدون استكمال البدن تلك الخصائص بأن كان سقيماً مريضاً أو كان غير حاصل على ما يقوّم به أوَد حياته من الغذاء أو يدفع به ألم البرد فانه لا يكون مستكملاً السعادة الانسانية بل النفسية دون البدنية ولا سعادة الاَّ باستكمالهما معاً فان الانسان مركب منهما كما قلناه

وعلى رأيه السعادة الانسانية التامة تتوقف على خمسة أشياء كل قسم منها تكون عنه سعادة ناقصة الأول ان يكون صادق الاعتقادات فى التصديقات الدينية وغيرها من المعلومات الأخر بريئاً من الخطأ والزلل جيد الرأى صحيح الفكر أصيل المشورة الى آخر ما تقدم من الصفات التى يتم بها اعتدال القوة الحكمية الثانى أن يكون صحيح البدن لطيف الحواس بمعنى أنه يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس وذلك

يكون عند اعتدال المزاج الثالث أن يكون ذا ثروة وعشيرة وأعوان كى يستطيع فعل الخيرات لمستحقها على الوجه الذى ينبغى ويقتدر على دفع الضيم عنه وموازرة من تحسن موازرته الرابع أن تحسن أحدوثته الحقة لدى الناس وتكثر مدحته الصادقة بين أهل الفضل فان ذلك يزيد قلبه سروراً ويده بسطة فى فعل الخيرات الخامس أن يرزق النجاح فى أموره فتتيسر له مقاصده وتصل اليه أغراضه ويدرك الغاية المقصودة ويجمع كل هذه استكمال فضيلتى الشجاعة والعفة

وما ذهب اليه أفلاطون تعضده الشريعة الاسلامية فانها ناطت السعادة الفانية والباقية بصادق الاعتقاد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام والقيام بامتثال الاوامر واجتناب النواهى والتحلى بفاضل الاخلاق التى سبق الكلام عليها وان كان مريضاً أو مبتور بعض الاعضاء أو فقيراً معدماً بل رغبته فى الصبر على ذلك باجزال الأجر والثواب فى الحياة الباقية

هذا ما نراه كافياً فى الاتصاف بالسعادة ولا نغالى فيها مغالاة بعض الفلاسفة اذ قالوا انها لا تكمل الاّ اذا تشبه الانسان بالخالق فيفعل الخير لا لغرض مطلقاً بل لكونه كمالاً ونفسه كاملة فيّاضة لذلك الكمال على نحو ما قالوه فى صدور العالم عن الله فان ذلك شىء قد لا يتحقق مهما رغبنا فى السعادة وحثثنا عليها فان غالب الناس ان لم يرغّبوا لا يُقبلوا كما أنهم اذا لم يرهبوا لا يدبرون ولذا جاءت الشريعة المطهرة مشتملة على قرن المأمور به من الاعمال بالمرغّبات وقرن المنهى عنه بالمرهّبات (ومن أصدق من الله حديثاً) ومهما بلغ الانسان فى رقى الكمال فانه بشر يألم ويحزن ويفرح ويهش للثناء الصادق ويلذ بالمأكل والمشرب والاستمتاع

الى غير ذلك مما يعد انكاره مكابرة أما القول بأنه يكون شبيهاً بالاله فى كل ذلك فشطط ظاهر واذا تساهلنا فيه معهم بعض التساهل (من غير اذعان لرأيهم فى ايجاد الله العالم) نقول انها بهذا المعنى لا تكون الاَّ للانبياء عليهم الصلاة والسلام . هذا وقد ذهب كثير من المحدثين مذاهب شتى فى حقيقتها وغالبها راجع الى أمور تخيلية أو حيوانية لا تصلح أن تكون من الخصائص الانسانية ولهذا كانت خالية من الصواب فلا داعى لايرادها وبالله التوفيق

رجوع الشريعة الاسلامية المطهرة الى مكارم الأخلاق

أبنا غير مرة فيما سبق أن سعادة الافراد ورقيّ الأمم انما هو منوط بعلومها الحقة والعمل على مقتضاها وظاهر أن العمل لا يعظم شأنه وينتج السعادة العامة والقوة الشاملة الا اذا اتحدت فيه الوجهة واجتمعت عليه الأيدى وحفظت حقوق الافراد وعرف كل واحد ما هو منوط به بالنسبة لأبناء أمته من واجب الاخاء والمعاضدة والصدق فى المعاملة الى غير ذلك من الأعمال والأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب وحفظ سياج المجتمع الانسانى

واذا نظرت الى هذه الشريعة المطهرة وجدت أنها عُنيت بالأعمال وأجادت أحكامها وحضت على عمل كل ما فيه منفعة لبنى الانسان فى حياتهم الفانية والباقية ورغّبت فى الأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب والتعاون على جلب الفوائد ودفع المضارّ وجاءت بالعقائد السهلة البسيطة التى لا تحتاج فى الاذعان بها الى كثير من الأدلة والبراهين العويصة كما

درج عليه الفلاسفة في أقوالهم بل نبهت عليها بالأدلة المحسوسة المألوفة للفطر الانسانية . ولم تتوسع فيها توسع الحكماء الباحثين عن أعيان الموجودات وأحوالها ذلك البحث الذى هو مزلقة للعقول وتضييع للأزمان على قلة الجدوى بل ذكرت من تلك العقائد ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام مما يتوقف عليه نظام المجتمع الانسانى والمثابرة على الأعمال النافعة مع الحض على الالفة واتحاد الوجهة وذلك كالاعتقاد بالله واحد ثابتة له صفات الكمال منتفية عنه النقائص له الرقابة والهيمنة على ما فى الضمائر وخفايا الأعمال والاعتقاد باليوم الآخر واثابة المحسن بجزيل الثواب والنعيم المقيم والمسيء بأليم العقاب وبينت ذلك كله بضرب الأمثال المحسوسة والأدلة المألوفة فى آى القرآن الكريم والحديث الشريف كما أسلفناه في الجزء الأول من كتابنا هذا

اذا قرأت الكتاب الشريف ونظرت في السنة وجدت حكماً عالية ومعانى رائعة لا تسمو اليها الأفكار البشرية ولا تطاولها المعلومات الانسانية ولا ينكر هذا الا مكابر

الشريعة مشتملة على تلك العقائد القليلة البسيطة وعلى أحكام الأعمال الحسنة مشفوعة بالمواعظ والعبر . وتلك الأعمال على كثرتها وعدم دخولها تحت الحصر ليست الا نتائج أخلاق فاضلة

لأنها (اما عبادات) ومرجعها النظافة وتهذيب الأخلاق واظهار الخضوع والعبودية والشكر لذلك الخالق العليم القدير القاهر فوق عباده وهذا يدعو الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه . قال تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

ويترتب على ذلك كف النفس عما ليس من حقها (واما زواج وما يتعلق به من طلاق ونفقة وحضانة) وظاهر أن منح الزوجة الصداق يُدخل على قلبها الفرح والسرور فان اعطاء الغير ما تألفه نفسه اذا كان ممدوحاً يعد من قبيل المودة التي ستعقب حسن العشرة ومن ذلك حسن معاملتها على قدر الاستطاعة في النفقة بأنواعها من مأكل وملبس ومسكن وعدم مضارتها وتكليفها بما لا يحرجها مما لم يفرضه عليها الشارع والزامها باطاعة بعلها فيما تنبغى فيه الاطاعة وابعاث حكم من أهله وحكم من أهلها عند الشجار والخلاف كى يصلحا بينهما ان كانت الفائدة في ذلك والا افترقا وألزم الزوج بالانفاق عليها جزاء احتباسها على ذمته مدة العدة . قال تعالى (وان يتفرقا يغن الله كلاً من سعته)

واذا كان لهما ولد لا يقوى على قضاء حاجيّاته بأن كان صغيراً لا يمكنه أن يتناول غذاءه بنفسه من المنزل ولا يقوم بأمر شرابه ولبسه ملابسه وقضاء حاجته تُرك لأمه ما دامت غير متزوجة بأجنبى منه لأنها أشفق عليه وأقدر على قضاء لوازمه من أبيه القائم بأعماله الخارجة عن المنزل فان لم تكن قادرة على حفظه والقيام بمهامه قامت أمها مقامها فان لم تتوفر فيها شروط المحافظة عليه قامت أم أبيه مقامها كل هذا مع قيام أبيه بالانفاق عليه . وجميع ذلك يرجع الى خلق المرحمة والمحافظة على الغير ومثل هذا الوصاية على الصغير والوكالة عن الكبير وما فيهما من الأحكام فانها راجعة الى خلق الأمانة والمرحمة وكذلك أحكام الحجر واللقيط والمفقود ومثل ذا أحكام الانفاق على القريب المحرم وأحكام المواريث فانهما مبنيان على ايثار ذوى القربى ومن ثم روعى فيهما قوة القرابة

ودرجتها والاعتداد بمن يقوم مقام الميت من أسرته فى اقامة دعائم حياتها وكل ذلك راجع الى خلق المروءة والانصاف والرحمة

وأحكام الوصية والهبة مبنية على البذل والتوادّ وهما من أعظم مقوّمات خلق المحبة التى هى من أقوى دعائم نظام الاجتماع

(واما عقوبات) وجميع أحكامها راجعة الى ردع ذوى الأخلاق الفاسدة عما ارتكبوه حتى ينهجوا فى سيرهم على مقتضى الأخلاق الفاضلة فان كثيراً من بنى الانسان ليسوا بالمهذّبين الذين يعتنقون الفضيلة حباً فيها فأمثالهم لا يحسن معهم الوعظ والحث على ترك الرذائل والتخلق بفاضل الخلال بل لا يجدى فيهم الاّ الاخافة بالحبس والضرب والتعزير والغرم . ومن جنى منهم جناية كبرى تُشعر بأن وجوده في المجتمع مؤد الى الاخلال بنظامه فهو بمنزلة العضو الفاسد الذى اذا أبقى عليه يطّرق الفساد الى غيره من الاعضاء كان الأنسب بمصلحة الأمة اعدامه واراحة المجتمع منه

وما يُرى فى بعض أحكامها من الشدة كقطع يد السارق ورجم الزانى المحصن انما هو لعظم الجريمة ومعلوم أن شدة العقوبة أدخل فى الرجوع عنها وأشد زجراً للغير عن ارتكاب مثلها على أن الشريعة قد راعت فى أمثال هذه العقوبات شروطاً يقل وجودها في كثير من تلك الجرائم

(واما معاملات) ومن يتأمل فى أحكام ما فيها من بيع واجارة وشفعة ومساقات ومزارعة وكفالة وحوالة وقرض ورهن الخ يجد أنها راجعة الى الاعتداد بالتعاقد المفيد أحكام كل هذه الأشياء ألا يرى أنه اذا أهمل ولم يعوّل عليه انتقض الأمر وكان كل من البائع والمشترى والمؤجر

والمستأجر والكفيل والدائن والمساقى والمزارع ورب الأرض فى حل مما قال فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس وذلك مناف لخلق الوفاء والاعتداد بالقول ويترتب عليه الخصام والشجار وما نراه من الرد بالعيب فى البيع والاجارة راجع الى خلق الانصاف والصدق فى المعاملة وعدم ائثار النفس والتوقى من الاضرار بالغير . وما يرى فى أحكام القرض من تحريم الربا عائد الى خلق الرحمة والسهولة فى المعاملة الجالبة للمحبة العامة بين أفراد الأمة وهى من أعظم الأخلاق التى تنمى الوئام والوفاق فلا يعدل عنه لفائدة جزئية شخصية قد تستعقب عداء وسخطاً

وبالجملة لو راجعنا أحكام هذه الأشياء مع زائد الامعان لوضح لنا انها راجعة الى أنواع مكارم الأخلاق التى هى أهم شئ فى نظام الأمم واتحاد وجهتها

ان ما نراه فى الشريعة من أحكام معاملة أهل الذمة وأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا الا فى بعض أحكام قليلة مبنى على خلق الانصاف مع الاحتفاظ بأن لنا بعض الخصائص فان أبناء الأمة اذا لم يكن لهم بعض الميَز بل كانوا لدى أمتهم كغيرهم الذى ليس منها فى جميع الأحكام والمزايا ولّد ذلك فيهم عدم الاحتفاظ بها والقيام برقيها واعلاء شأنها — ولا يؤثر المساواة فى كل الأحوال على المِيزة الا بعض المهذبين وهم قليلو العدد نادرو الوجود لا تبنى على أحوالهم الشرائع الاجتماعية

قد تبين لك مما قلناه أن هذا خلق حسن يترتب عليه قيام الأمة ونهوضها بدون اضرار كلى بمن ليس منها وانتظم فى سلك مجتمعها

ان أحكام المعارك مؤسسة على احراز الغالب نتائج عمله مع شئ من

الرفق اذ حرمانه منها مؤذن بهبوط الهمة وانحلال العزائم على الأعمال وانقباض الأيدى وضعف الآمال ولا يرضاه الا من اجتُثَّ منه خلق الميزة وترك نتائج أعماله فرضى بإيثار منفعة خصيمه على منفعته ومثل هذا لا يراعى فى الأحكام الاجتماعية كما قدمناه — هذا قانون كلى لو خرجنا عامة أحكام الشريعة على مقتضاه لاستغرق زمناً طويلاً وملأ مجلدات كثيرة . فعليك عرض ما تريد من الأحكام على ما رسمناه من البيان الوجيز تتضح لك صحة ما أسلفناه

اذا عقلت هذا عامت مغزى قوله عليه الصلاة والسلام (بُعثت لأتمم مكارم الاخلاق)

ألهمَّ وفقنا للاهتداء بهديه والعمل على سنته انك سميع مجيب

يا واسع الفضل يا جزيل العطاء اجعل ما سطرته خالصاً لوجهك الكريم نافعاً لقارئه عاملاً بما فيه :: أهدنا يا واسع الفضل الى ما فيه نجاحنا فى الدنيا والآخرة انك على كل شىء قدير وبالاجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم م

وقد فرغ من جمعه الفقير الى رحمة ربه سلطان بن محمد بن على المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فى اليوم السابع من شهر شوال سنة تسع وعشرين وثلاثمائة والف هجرية



﴿ فهرست الخطأ والصواب لكتاب الأخلاق الاسلامية ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٠	يبدل سيئاتهم	يبدل الله سيئاتهم
٥	٣	الاربع	الاربعة
٣٠	٤	وقدمنا	وقد قدمنا
٣٠	٥	التفريط المذكور	التفريط فيه
٣٨	٦	يحسده	بحسده
٦٦	١٥	أوت	آوت
٧٢	٥	ذووا	ذوو
٧٣	٩	ذووا	ذوو
٨٢	١٩	النفسية الثلاث	النفسية الثلاثة
٨٤	١١	القوى الثلاث	القوى الثلاثة